الصحابة من الأنصار

دكتور
حسين مؤنس

دار الصحوة

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

١٤٠٩ - ١٩٨٩

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

٧ شارع السراى بالمنيل ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان - مدينة الهندى ت : ٦٨٨٠٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم اللّه والصلاة والسلام على رسول اللّه، الرحمة المهداة.

لا يعرف قدر الصحابة من الأنصار إلا من يدرس السيرة النبوية الشريفة، لأن المؤرخين ركزوا على المهاجرين وجعلوا لهم الفضل كله، وقللوا من أهمية الدور الذى قام به الأنصار فى خدمة الإسلام والرسول صلوات اللّه عليه وسلم.

وكان لابد لاستكمال معرفتنا بالسيرة الشريفة أن ندرس الصحابة من الأنصار ودورهم الجليل فى خدمة الإسلام.

وفى صفحات هذا الكتاب تعريف موجز بالأنصار ودورهم، وهذا التعريف فى الحقيقة مقدمة لتاريخ الأنصار، ورجائى أن أكون قد استطعت القيام بهذه الدراسة.

والحمد لله والشكر له سبحانه، وهو من وراء القصد والنية.

المؤلف

القاهرة فى ٢٠ يوليو ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

الأنصار
وبناء أمة الإسلام

يبدو لقاء رسول الله ﷺ مع أهل المدينة وكأنه مصادفة سعيدة، وخاصة بعد ما وقع له مع أهل الطائف أولاً ثم الكثير من قبائل العرب الذين لقيهم خارج المدينة بعد ذلك، لكننا نرى الآن بعد الدراسة والتفكير أنه لم يكن فى ذلك كله مصادفة، وإنما هو تقدير من الله سبحانه وتعالى. تقدير محكم لا يصدر إلا عن رب العالمين سبحانه، فلو أن الأمور سارت منذ البداية في الطريق الذى كنا – نحن البشر– نرجوه، فدخل القرشيون الإسلام لأحسُّوا – أو لأحسَّ بعضهم على الأقل – أن لهم فضلاً هنا فى دخول الإسلام مختارين وأن هذا يعطيهم مكانة ممتازة فى المجتمع الإسلامى كتلك التي كانت لهم قبله، أما رفضهم وعنادهم فقد انتهى بهم إلى دخول الإسلام مغلوبين، فدخلوا الإسلام بعد أن فقدوا كل ميزة ودعوة، وأصبحوا فيه كغيرهم، وكان في هذا خير لهم وللآخرين كذلك.

وكان أهل المدينة قبل أن يعرفوا الإسلام يعيشون في خوف دائم وحرب متصلة، وكان اليهود يهددونهم بنبيّ أطل زمانه ويقولون إنه عندما سيجيء سينصرهم علي الأوس والخزرج ويجعلهم سادة المدينة، فلما التقى الستة – الذين لقوا رسول الله في بيعة العقبة الأولى – برسول الله ﷺ أحسوا أن هذا هو النبي الذي يهددهم به اليهود فآمنوا به، ثم رأوا من دلائل نبوته وكمال صفاته ما جعلهم يحسون أن هذا هو الرجل الذي سيجمعهم ويوحد صفوفهم ويذيل مخاوفهم فزاد تعلقهم به، وأصبحوا يشعرون أنهم ولدوا من جديد في ظل الإسلام ورسوله، فتفانوا في الإسلام وحب رسوله وأصبحوا حقيقة خلقاً آخر.

ويهمنا أن ننبه هنا إلى أن بعض الناس يحسون أن سهل المدينة كله كان يسمى يثرب قبل هجرة الرسول، وأصبح يسمى بعدها مدينة رسول الله أو المدينة المنورة فحسب، والحقيقة هي أن سهل المدينة – بما في ذلك الحرَّتَان أو اللابتان عن مشرق ومغرب – كان يسمى بالمدينة، ويثرب كانت إحدى الواحات المعمورة فيه، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ راتج والسُّنح، ولفظ المدينة قديم، وأصله سُرْياني وهو مدينتا ويراد به الحوز الذي يسرى عليه قانون المدينة.

ونلاحظ أيضاً أن الأوس والخزرج لم تكونا قبيلتين عندما نزحوا من اليمن إلى الحجاز بعد تصدع سد مأرب وإنما كانوا قبيلة واحدة هي الخزرج، وكان الأوس فرعاً من الخزرج، وهم الأوس بن جشم بن الحارث، فوقع الخلاف بين الأوس والخزرج، وانفصل الأوس بن جشم وانضم إليهم إخوتهم عبد الأشهل بن جشم وزعوراء وهم أهل راتج وعمرو والحريش. وكان بنو زعوراء بن عبد الأشهل قبيل قوي محارب، حفزٌ به جانب الأوس وقوى أمرهم أمام الخزرج، وانضم إليهم اليهود أحيانا، وخاصة في معركة بعاث، فانتصر الأوس علي الخزرج، وأسرع الخزرج إلى مكة لطلب الحلف، وقد تلاشت هذه الخلافات كلها بعد الإسلام. ومن عظماء عبد الأشهل بن زعوراء في الإسلام أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ والحارث بن أوس والحارث بن أنس وسعد بن زياد وعباد بن بشر، وغيرهم كثيرون من أبطال الإسلام .

* * *

ولقد أحس الأنصار أن الله سبحانه وتعالى وهبهم بالإسلام نعمة كبرى، وأن عليهم أن يقابلوا هذه النعمة الكبرى بأن يهبوا وجودهم كله للإسلام، وكان الإسلام بالفعل في حاجة إلى قبيل كبير يهب حياته للدين عن صدق وإيمان حتى يكسب معركته الكبرى مع الكفر وأهله، ولا غرابة والحالة هذه أن نجد أن حوالي نصف الأنصار وحلفائهم قد استشهدوا في مغازى الرسول وحرب الردة وفتوح الإسلام،

بل إن بعضهم زهد في الحياة فلم يعتب، ومثال هؤلاء: عباد بن بشر وهو من بني زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل، وقد أسلم في المدينة على يد مصعب بن عمير قبل إسلام أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ، وقد تزوج امرأة من بني عبد الأشهل تسمى فاطمة، وأنجب منها بنتا واحدة لم تعقب، وعندما استشهد في معركة الحديقة التي قتل فيها مسيلمة الكذاب وانتهت دعوته في خلافة أبي بكر رضي الله عنه انتهى عباد بن بشر فلم يكن له عقب.

وكان عباد بن بشر لصيقاً برسول الله ﷺ ما عاش. كان معه في بدر، وقاتل فيها ببسالة، وكان في الجماعة القليلة التي قتلت كعب بن الأشرف عدو الإسلام، وفي معركة أحد كان من الجماعة القليلة التي ثبتت إلى جوار الرسول ﷺ وتمكنت من استعادة المسلمين الذين كانوا قد تفرقوا عقب نزول الرماة من على تل عينين، وظل عباد بن بشر ثابتاً إلى جوار رسول الله حتى نهاية يوم أحد وتفرق الكفار لم يكسبوا من المسلمين أو المدينة شيئاً.. وقد شهد مع رسول الله المشاهد كلها. وعندما اختار الرسول المصدقين وأرسلهم إلى القبائل لكي يشرفوا على جمع الزكاة ويستخرجوا النصيب القليل الذي يستحق لله ورسوله أي لأمة الإسلام، أرسله إلى بني مُزَينة وسُليم؛ فاقام فيهم عشرة أشهر ثم انتقل إلى بني المصطلق ليقوم فيهم بنفس المهمة، وجعله رسول الله ﷺ على مقاسم حنين بعد انتصار المسلمين على هوازن، ثم صحبه إلى تبوك، فاستعمله الرسول عليها مدة اقامته بها، وكان الرسول قد أقام في تبوك ستة وعشرين يوماً.

ولكن الموقف الأكبر لعباد بن بشر كان يوم وقعة الحديقة بين المسلمين ومسيلمة الكذاب، وكان مسيلمة وقومه من بني حنيفة قد تحصنوا في غابة منخفضة يعسر الدخول إليها في اليمامة، وكان قائد المسلمين خالد بن الوليد، وكان الأنصار يقاتلون في هذه المعركة على حدة وعلى رأسهم عباد بن بشر، وكان يطلب الشهادة فعلاً، روى سعيد الخدري عن أبيه أنه سمع عباد بن بشر قبل المعركة يقول: رأيت الليلة كأن السماء قد فُرِجَت لي ثم أطبقت على، فهي إن شاء الله الشهادة! قال

قلت: خيراً واللّه رأيت، قال: فانظر إليه يوم اليمامة، وإنه ليصيح بالأنصار: حطموا جفون السيوف، وتميزوا عن الناس، وجعل يقول: اخلصونا! أخلصونا! فأخلصوا، أربعمائة رجل من الأنصار، ما يخالطهم أحد، يقدُمُهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك، حتى انتهوا إلى باب الحديقة، فقاتلوا أشد قتال، وقُتِل عباد بن بشر رحمه الله، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً ، ما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده، وكانت سنُّهُ يوم استشهد خمساً وأربعين سنة.

* * *

ومن أبلغ المواقف دلالة على طبيعة الأنصار وزهدهم في الدنيا وتفانيهم في سبيل الإسلام موقف بشير بن سعد أبي النعمان بن بشير يوم سقيفة بني ساعدة، وكان بشير من بواسل الخزرج وهو ابن أخت عبد اللّه بن رواحة شاعر الرسول ﷺ . وقد عاش منذ دخل الإسلام في ظل الرسول، وحضر معه المشاهد كلها وأبدي بسالة عظيمة، ففي شعبان سنة سبع أرسله الرسول ﷺ قائداً لسرية على بني مرة قرب فدك، وثبت المرّيّون للمسلمين ثباتاً كبيراً وجرحوا الكثير منهم وفيهم بشير، فقد أصيب وارتمى على الأرض وظنوا أنه استشهد، ولكنه لم يمت، وتحامل على نفسه في ظلام الليل وعاد إلى الرسول ﷺ ، وبعد ذلك بقليل وفي نفس الشهر أرسله الرسول قائداً لسرية من ثلاثمائة رجل إلى قبيلتي يُمن وجُبار بين فدك ووادي القرى، و كان معهم نفر من غطفان فيهم شيخهم عيينة بن حصن، فأبلى بشير ومن معه فيهم بلاء حسناً ، وقتلوا منهم كثيراً وفر عيينة بن حصن.

هذا الرجل وقف يوم السقيفة عندما اشتدت المناقشة بين أبي بكر وعمر من ناحية ونفر من الأنصار من ناحية أخرى وقال: «يامعشر الأنصار، إنا واللّه وإن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضي ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضاً، فإن اللّه وليُّ المِنَّة علينا بذلك، ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى، وأيْمُ اللّه لايراني اللّه أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا اللّه ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم..

وكانت كلمة بشير بن سعد هذه فاصلة الخطاب، فبعدها انتهت المناقشة وبايع الناس أبا بكر واتحدت صفوف المسلمين، وبشير كان موضع ثقة الرسول دائماً فهو عندما سار لعمرة القضية، أي لقضاء العمرة بحسب ما تم الإتفاق عليه في صلح الحديبية في سنة سبع للهجرة وجد أن يأخذ السلاح معه من باب الحيطة، فجعل السلاح متأخراً عن جيش المسلمين وأقام عليه بشير بن سعد، وقد ظل بشير مجاهداً في سبيل الإسلام حتى استشهد في عين التمر في فتوح العراق تحت قيادة خالد بن الوليد.

* * *

ولم يقتصر تفاني الأنصار في سبيل الإسلام علي الجهاد بل كان منهم أفذاذ العلماء، وعلى رأس هؤلاء أبي بن كعب وهو من بني عمرو بن مالك بن النجار، وكان يحسن الكتابة بالعربية يوم دخل الإسلام، فاتخذه الرسول ﷺ كاتباً للوحي، وتبين فيه النبوغ فأختصه بكتابة القرآن وحفظه وتلاوته، قال ابن سعد في طبقاته: وأمرَ الله تبارك وتعالى رسوله أن يقرأ على أُبَيّ القرآن. وقال رسول الله ﷺ أقْرأُ أمَّتي أُبَيّ. وشهد أبيّ مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها.

وكان رجلاً دحداحاً ليس بالقصير ولا بالطويل، وكان ابيض الرأس واللحية لا يغير شيئاً. وروى ان عمر بن الخطاب حبس في خلافته وإلى جانبه رجل أبيض الشعر أبيض الثياب فقال: إن الدنيا فيها بلاغُنا وزادنا إلى الآخرة. فسئل عمر عن هذا الرجل فقال: هذا سيد المسلمين أبَيّ بن كعب.

فروى محمد بن سعد عن بعض رواته قال: إن رسول الله دعا أبيّ بن كعب فقال: إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أقرأ عليك. قال: الله سماني لك؟ قال: الله سماكَ لي! فجعل أبيّ يبكي. وكان أبيّ يختم القرآن في ثماني ليال. وكان تميم الداري يختمه في سبع.

وسأل رجلٌ أُبَيًّا عن شيء مما سمع من رسول الله فلم يعطه أبيّ جواباً شافياً، فقال الرجل لأبيّ: مالكم أصحاب رسول الله ﷺ ؟ نأتيكم من البعد نرجو عندكم الخبر أن تُعلمونا، فإذا أتيناكم استخففتم أمرنا كأننا نهون عليكم؟ فقال: والله لئن عشت إلى هذه الجمعة لأقولنّ فيها قولاً لا أبالي أستحييتموني عليه أو قتلتموني» قال الرجل: فلما كان يوم الجمعة أتيت المدينة فرأيت أهلها يموج بعضهم في بعض في سككهم، فقلت ما شأن هؤلاء الناس؟ فقال بعضهم: أما أنت من أهل هذا البلد؟ قلت: لا! قال: مات سيد المسلمين أبي بن كعب،وكأنما أسف أبي بن كعب، للوم الرجل إياه فقرر أن يغير مسلكه من الشح بأخبار الرسول ويعلن ذلك على الناس، فأدركه الموت قبل ذلك. وهذا الشح من جانب بعض الصحابة كثير، لأنهم كانوا يحسون أن ما يعلمون من أخبار الرسول مما شهدوه هم ميزة لهم.

وكان أبي رجلاً زاهداً.

وكان من النفر الذين جمعوا القرآن أيام عثمان بن عفان. وقد توفي في خلافته.

وقد اشتهر مع أبي بحفظ القرآن والمعرفة به أيام رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ابن الضحاك من بني عدي بن النجار، وكان آية في الحفظ والدقة والحرص على القرآن. وكان رسول الله يحبه لذلك، قال ابن الأثير في «أُسْد الغابة» وكانت راية بني مالك النجار يوم تبوك مع عُمارة بن حزم، فأخذها رسول الله ودفعها إلى زيد ابن ثابت، فقال عُمارة: يارسول الله، بلغك عني شيء؟ قال: لا، ولكن القرآن مقدم، وزيد أكثر أخذاً للقرآن منك.

وكانت ترد على رسول الله كتب بالسريانية، فطلب إلى زيد بن ثابت أن يتعلمها ففعل، وصار يقرأ للرسول ﷺ ما يرد عليه من الكتب بهذه اللغة، وكان ماهراً في الفرائض أي قسم التركات بين الورثة بحسب الشريعة الإسلامية، وقد قال رسول الله ﷺ : أفرضكُم زيد، فأخذ الشافعي بقول زيد في الفرائض عملاً بهذا الحديث. وكان على بيت المال لعثمان بن عفان. وقد جعله عثمان على رأس

الجماعة التي ألفها لتجمع القرآن الكريم وتراجعه ولا تبقي إلا على قراءة واحدة محافظة على النص القرآني من اختلاف القراءات.

* * *

ومهما نتأمل في سير الأنصار وأخبار السيرة نجد أن الأنصار في جملتهم كانوا خيراً وبركة على الإسلام، وكأنما هيأهم الله وأعدهم لنصرة دينه، وتصور لنا ذلك مقالة بديعة من البراء بن معرور، وهو من بني سلِمة بن جشم بن الخزرج، وكان من أوائل من أسلم من الأنصار، وكان من أهل العقبة ومن النقباء الإثني عشر، وكان البراء أول من تكلم من النقباء ليلة العقبة حين لقي رسول الله ﷺ السبعون من الأنصار فبايعوه وأخذ منهم النقباء، فقام البراء فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وحيانا به، فكنا أول من أجاب وآخر من دعا، فأجبنا الله ورسوله، وسمعنا وأطعنا. يامعشر الأوس والخزرج، قد أكرمكم الله بدينه، فإن أخذتم السمع والطاعة والمؤازرة والشكر، فاطيعوا الله ورسوله: ثم جلس[1].

وكان البراء قد عاد إلى المدينة بعد ذلك، فجعل يصلى إلى المسجد ثم أقبل إلى مكة ولقى الرسول فأمره الرسول أن يصلي إلى بيت المقدس فأطاع وصلى إلى بيت المقدس. فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه إلى المسجد وذلك قبل أن تغير القبلة، فكان بذلك أول من صلى إلى الكعبة، وقد توفي البراء في المدينة قبل هجرة الرسول إليها بقليل، فلما وصل المدينة انتقل بأصحابه ووقف عليه وقال: اللهم اغفر له وارحمه وارض عنه، وقد فعلت.

* * *

---

(١) طبقات بن سعد ٣/ ١٤٦.

وكان الأنصار يشعرون بالسعادة الكبرى إذا كانوا في صحبة رسول الله ﷺ، مجرد وجوده وسطهم كان يشعرهم بسعادة كبرى، وأنت تشعر بذلك إذا قرأت تفاصيل غزوته ﷺ إلي بني لحيان من غطفان، وتسمى غزوة الغابة أيضاً، وهي الثالثة والثلاثون من غزواته وسراياه، وكانت في ربيع الآخر سنة ست للهجرة، وهي من صغار غزواته وتدخل ضمن ما نستطيع تسميته بالغزوات التأديبية أي أنها لا تدخل ضمن غزواته الكبرى التي تعين مراحل حاسمة في تطور أمة المدنية، ولكنها تعطينا فرصة نادرة لنرى الرسول ﷺ بين الأنصار، فقد كان معظم من اشترك فيها معه منهم، وسببها أن رسول الله ﷺ كان قد اتخذ حمى صغيراً للقاحه – أي لإبله – في مكان قريب من المدينة إلى شمالها يسمى الغابة، وكانت نحو عشرين لقحة، وكان هذا الحمى إلى جوار حمى لابن عبد الرحمن بن عوف، فأراد عيينة بن حصن أن يغير على حمي عبد الرحمن بن عوف ويسرح إبله، فأخطأ وأغار على حمى إبل رسول الله ﷺ وسرح العشرين لقحة، وكان يحرسها المقداد بن الأسود، فما راعه إلا عيينة بن حصن يغير في أربعين من رجاله، ويسرق اللقاح، ويمضي هارباً، بعد أن قتلوا ابنا لأبي ذر الغفاري، وكان أبو ذر قد أستأذن الرسول في أن يبيت في الحمى، فحذره الرسول من ذلك فأبى. وكانت النتيجة، أن قتل ابنه وأخذت امرأته، وأسرع المقداد إلى المدينة ووقف عند ثنية الوداع وهتف: الفزع! الفزع! وكان رسول الله ﷺ عظيم الاهتمام بأمن المدينة والنظام في حوزها، فخرج مسرعاً إلى حيث كان المقداد بن عمرو فعقد له لواء وجعله على الخيل، وأمره أن يسرع في آثار عيينة ورجاله فأسرع حتى لحق بأخريات العدو الهارب، وتمكن هو والمقداد من استرجاع عشرة من لقاح رسول الله ﷺ، وقد انضم إليهم في ذلك رجل من عجائب الأنصار يسمى سلمة بن الأكوع اشتهر بسرعة الجري حتى كان يسبق الخيل.

وعندما هبط الليل كانوا قد حصروا الهاربين في مكان قاحل لا ماء فيه، ولحق بهم رسول الله ﷺ مع الناس، وقال سلمة لرسول الله: إن القوم عطاش، وليس

لهم ماء دون إحساء كذا وكذا، فلو بعثتني في مائة رجل لاستنقذت ما بايديهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم! ولكن رسول الله وجد أن فيما فعل المسلمون كفاية، فقد رأي عيينه ورجاله أن المسلمين يقظون، وهاهم قد قتلوا ابناً لعيينه ونفراً آخر واسترجعوا نصف اللقاح، وأهم من اللقاح أن يرى أولئك الناس أنهم لايستطيعون العدوان على المدينة أو شيء من حوزها دون عقاب، فقال لسلمة: ملكت فاسجح! أي قدرت فاعف. إنهم ليقرون في غطفان. أي إنهم قد هربوا ونزلوا على غطفان، وهم يقرون الآن في أرضها.

وعلى طول ما تقرأ في تفاصيل هذه الغزوة عند الواقدي فأنت تحس بسعادة الأنصار وهم حول رسول الله ﷺ يروحون ويغدون إليه ويتحدثون معه، وفيهم عباد بن بشر وأسيد بن الحضير، وكان رسول الله قد رأي التوقف عن المطاردة عند موضع في منتصف المسافة إلى منازل غطفان يسمى ذا قرد، وهناك جعل الناس يتلاحقون به، وكل منهم يود أن يقترب من الرسول ويراه، بل إن بعضهم خرج لكي يطمئن على سلامة رسول الله ﷺ فلما أطمأنوا عليه حمدوا الله وعادوا سعداء، وقد بلغ عدد من خرجوا ليلحقوا برسول الله في ذي قرد خمسمائة رجل ويقال سبعمائة، ولم تكن الغزوة تحتاج إلى هذا العدد الضخم، ولكنها الرغبة في الاقتراب من رسول الله ورؤيته والعمل معه.

* * *

رحم الله الأنصار فقد كانوا نعمة على الإسلام، وكان الإسلام نعمة عليهم، ولقد قدموا أرواحهم للإسلام طائعين مختارين، وكان لهم دور عظيم في بناء أمة الإسلام الأولى وفي الجهاد وصدقوا ونصحوا وأخلصوا، واستشهد الكثيرون جداً منهم، ولكن أبناءهم وأحفادهم ظلوا بعد ذلك يحملون ذكرى الأنصار في عالم الإسلام كله في كافة عصوره.

الصحابة والسراج المنير

فى إجمال التعريف برسول الله ﷺ تقول الآية الخامسة والأربعون من سورة الأحزاب: (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا).

وكل لفظ فى هذه الآية العظيمة وضع بقدر وله معناه ومغزاه، فأما الشاهد هنا فهو العلامة المميزة الفاصلة بين عصر وعصر، فإن محمداً لم يرسل آخر النبيين ليكون مجرد ختام لهم، وإنما ليكون فاصلاً بين ماقبله وما بعده. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعرف ذلك معرفة تامة، فأقام أمة الإسلام على نظام لا يشبه فى شيء من نظم الدول قبله، فلا ملكية ولا هيئة حاكمة ولا وزراء ولا جيش ولا سجن وإنما الأمة نفسها هى الهيئة الحاكمة وعلى رأسها هيئة الشورى.

بدأ رسول الله ﷺ فى إنشائها ليلة العقبة الثانية عندما طلب إلى الأوس والخزرج أن يختاروا له اثنى عشر نقيباً يكونون أهل شوراه عن أهل المدينة وضم إليهم الرسول ﷺ من رأى من أصحابه من أهل مكة ومن انضم إليهم، وكانت هيئة الشورى تلك منظمة تنظيماً دقيقًا: ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج وعدد من أهل مكة من المسلمين القرشيين الذين سموا فيما بعد بالمهاجرين.

وضم الرسول ﷺ إليهم من رأى من غير القرشيين من سكان مكة مثل أبى ذر والمقداد بن الصامت ولم يكن هؤلاء سادة أو حكاماً، ولا كانت لهم سلطات محددة ولا رواتب، وإنما هم أهل شورى، وقد يستشير الرسول ﷺ غيرهم لأن الرأى السليم لم يقتصر على فئة دون فئة. وعلى أساس هذه الشورى قام أمر أمة الإسلام فى المدينة وكانت أسلم الأمم بنياناً وأحسنها إدارة وأقواها جنداً دون قيادة محددة، فإن رسول الله ﷺ كان يدرب أصحابه على القيادة، فيختار الرجل لقيادة السرية، فإذا انتهت عاد مواطنًا كما كان بلا امتياز ولا رواتب، وإنما للقائد

من المغانم كما لغيره من المقاتلين، بحسب ما حدده القرآن الكريم لأن الجزاء الحق يأتى من الله سبحانه وتعالى.

وهذه الجماعة من أهل الشورى هى التى وضعت دستور المدينة وهى الصحيفة التى لم يملها الرسول ﷺ على الناس إلا بعد أن شاورهم فيها. فما أقروه أمر به رسول الله ﷺ على بن أبى طالب أن يكتبه ليلتزم به الجميع. وقد التزموا به وسارت أمور الأمة وفق قانون ثابت، وقد أتت آيات القرآن بعد ذلك مؤيدة لمواد الصحيفة، ولكن الصحيفة ظلت بعد ذلك شاهدًا وعلمًا على هذا النظام الجديد الجميل.

لهذا فإن الذين يفهمون الإسلام يتحرجون من أن يسموا أمة الرسول دولة، لا لأن سلطة الدولة لم تكن موجودة ولكن تحرجًا مما وقع بالفعل بعد الرسول وعصر الراشدين من ارتداد أمة الإسلام إلى صور دول الأكاسرة والقياصرة. فضاعت بذلك الميزة الكبرى لأمة الإسلام، وفقد المسلمون طابعهم المميز. إن محمد الذي أقام دولة الإسلام لم يكن ملكاً ولا قيصر ولكن كان نبياً داعياً (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً).

فرسول الله ﷺ فى هذه الآية داع إلى الله بإذنه. وهو ليس بهاد للناس ولا مسيطر عليهم فإن الإسلام فضل من الله على من يدخل فيه، والأفضال نعم من الله لا ينالها إلا من يستحقها وهى لهذا لا تفرض أبداً.

والذين يحسبون أن رسالة الإسلام تتم بدخول الناس فيه جميعًا طوعًا وكرهًا مخطئون، فإن الله سبحانه يريد أن نكون أممًا، وله فى ذلك حكمة، ولو شاء أن نكون أمة واحدة لكنا أمة واحدة، ولو شاء أن نتكلم جميعاً لغة واحدة لفعل، ولكنه سبحانه جعل اختلاف لغات الناس آية من آياته، وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك، ولكنه كان يدعو أصحابه إلى تعلم اللغات، لأن من عرف لغة قوم أمن شرهم.

وأخيرًا تقول الآية أن رسول الله ﷺ سراج منير.

والنور هنا إلهى ربانى، فمن دخل الإسلام وصدق فيه أحس بنور السراج الإسلامى فى نفسه وقلبه.

فإن الإسلام نور والقرآن نور. ومحمد رسول الله ﷺ هو السراج الحامل للنور إلى الناس، وهو نور محبة ونور إيمان ونور فضيلة ونور بصيرة لا يناله إلا من استحقه.

والقرآن الكريم يعرفنا بهذا النور، ولا يفسر القرآن مثل القرآن، والآية السابعة والخمسون من سورة الأعراف تقول:

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون).

وهذه الآية الكريمة تضع يدنا على المعنى التاريخى الدقيق لإيمان الذين اتبعوا نور السراج المحمدى، فهم الصحابة رضوان الله عليهم الذين رأوا نور النبوة ببصيرة القلب فاتبعوه وخرجوا من الظلمات إلى النور، وهذا واضح من إسلام ذلك النفر الأول الذى آمن برسول الله ﷺ خلال الأيام الأولى لبعثته، لأن الوحى عندما تنزل على رسول الله ﷺ حل النور في شخصه وقلبه. ورآه من أراد الله سعادته، وأولهم السيدة خديجة أم المؤمنين، ويليها أبو بكر ثم زيد بن حارثة ثم على ابن أبى طالب.

فأما السيدة خديجة فمن الواضح أنها رأت نور الإسلام فى عينى رسول الله ﷺ لأول ما أبلغها نبأ ما وقع له فى غار حراء، ولم يكن هو قد عرف بعد أنه وحى، ولا هى عرفت، وإنما هى رأت نور السراج المنير، فقد سألت زوجها الكريم لأول رجوعه مفزعًا من حراء: «يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي فى طلبك حتى بلغوا أقصى مكة ورجعوا لى»، ثم حدثها محمد بالذى رأى وسمع، فقالت: «أبشر يا ابن عم، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[1] .

---

(١) سيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام ١ / ٢٥٤ .

ونحن نعرف أن خديجة لم تعرف إلى تلك اللحظة ما هو النبى فمن أين أتت بهذا الكلام؟ لابد أنها رأت فى وجه زوجها شيئًا غير عادى، شيئًا فى معنى النبوة والنور والرسالة الإلهية. وتصرفها بعد ذلك يدل على أنها هى نفسها كانت تجد نفسها في نور، فقد قالت لزوجها كلمات تدل على إشراق القلب بنور المحبة، فعندما خاف الرسول ﷺ على نفسه، وقال لها: يا خديجة مالى؟ لقد خشيت على نفسى، فقالت: كلا أبشر، فواللَّه لا يخزيك اللَّه أبدًا. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق»[1] . وهذه كلمات من نور عبرت بها خديجة رضوان اللَّه عليها عن النور الذى أحست به يملأ نفسها.

ثم قامت وجمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان له علم بالأديان السماوية من يهودية ونصرانية، وكان يقرأ العبرية ويعرف كتب اللَّه وإن لم يتهود أو يتنصر، وكان قد أسن وذهب بصره، وما كاد يسمع كلام خديجة حتى قال: لئن كنت صدقتنى يا خديجة فقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت. والناموس كلمة عبرانية معناها الرسالة السماوية أو القانون السماوى، ومعنى هذا أن ذلك الرجل رأى نور السراج المحمدى بنور البصيرة، وأكد لخديجة أن هذه رسالة من السماء، وهى أمر ثقيل ومسئولية كبرى، فعلى رسول اللَّه أن يثبت.

ونمر بإسلام على بن أبى طالب وزيد بن حارثة، فقد كان الأول منهما دون العاشرة من عمره، وكان فى رعاية محمد فأسلم بذلك، وكان الثانى مولى رسول اللَّه يحبه ويتبعه ويطيعه.

ونقف عند إسلام أبى بكر، وهو عتيق بن أبى قحافة من بنى تميم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر. وكان شخصية عظيمة من شخصيات قريش، وكان

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وانظر الدرر لابن عبد البر ص ٣٢ .

يصغر رسول الله ﷺ بسنتين أى فى الثامنة والثلاثين من عمره، وكان رجلاً تاجرًا ناجحًا يحسن وزن الأمور، وكان عالمًا بأنساب قريش وأحوالها، وكان ذا عقل وحكمة، وكان مألفًا لقريش أى مجمعًا لحبهم، ومثل هذا الرجل مكان للحب والألفة فيما يؤمن به وما لا يؤمن، ولو أن شيئًا من الشك تطرق إلى نفسه لراجع محمدًا فيما قال ولنصحه بالتريث في قبوله وإعلانه، ولكن أبا بكر آمن بأن ما أبلغه صاحبه إياه هو رسالة سماوية، وما كان ليومن لو لم يكن النور السماوى قد دخل نفس وأضاءها فرأى الحق حقًا، ويؤيد ذلك أن إيمانه كان ثابتًا شاملاً، قال فيه رسول الله ﷺ : ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة [التردد فى الاستجابة] إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما علم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه، وما كان هذا ليكون لولا أن الرجل أحس بشيء لم يملك التردد فى قبوله، وهذا هو نور السراج الذى يملأ النفس ويرى الإنسان نور الحق حقًا.

وأبلغ الدلالة على أن أبا بكر رأى ذلك النور حقًا هو أنه مضى يدعو الناس إلى الإسلام ليصدقوه لأن للحق نورًا لا يخفى. ولم يكن الذين آمنوا بالإسلام بدعوة أبى بكر بصغار القوم، وإنما كانوا رجالاً ذوى وزن وقوة، وسنرى فيما يأتى من تاريخ الإسلام أنهم كانوا فى قوة الجبال، وهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو الأرقم عبد مناف بن أبى الأرقم، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون بن حبيب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان أكبر من رسول الله عمرًا - وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب وأسماء بنت أبى بكر وأختها عائشة، ولو أن عائشة كانت فى السن التى يقدرها لها الرواة لكان ينبغى أن تكون الآن فى الثانية من عمرها، ولما كان لدخولها الإسلام معنى، فلابد أنها كانت أكبر عشر سنوات على الأقل مما نحسب، وخباب بن الأرت حليف بنى زهرة، ولم يكن قرشيًا إنما كان - فيما يقال - من بنى تميم أو من بني خزاعة، والأغلب أنه لم يكن عربيًا أصلاً وإنما مولى لرجل من قريش.

ويطول الأمر بنا لو مضينا نعدد من أسلم بدعوة أبى بكر قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها، فهم كثيرون، حقًّا كان معظمهم شبابًا، ولكن الشباب لا يعنى قلة العقل أو ضعف النفس، وإنما يعنى هنا القوة والطهارة والتطلع والطموح، وهؤلاء هم بعض من عنتهم الآية الكريمة: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم). [التوبة/١٠٠].

وهكذا يتجلى لنا المعنى التاريخى لوصف الله سبحانه لمحمد بأنه السراج المنير، فهى ليست كلمة بلاغية أو عبارة تكريم، وأنما هى صفة حق لها معناها ومغناها، وليس فى القرآن الكريم لفظة إلا ولها وزنها ودورها ومعناها الدقيق.

ولا يرى هذا النور النبوى منا إلا الأقلون، لأن الغالبية العظمى ترث الدين عن الآباء والأمهات ويشبون عليه دون أن يكون لهم فضل فيه. ولكن انظر إلى الذين آمنوا بمحمد قبل دخوله دار الأرقم ودعوته فيها، والذين جاءوه فى دار الأرقم وأسلموا على يديه فيها وبعدها بقليل، وماكان الإسلام قبل دار الأرقم إلا كلمة، وإنما ستتجلى تفاصيل الإسلام وفضائله. فيما بعد. وكان إيمان هؤلاء النفر إيمانًا قويًا كالجبال، ومثل هذا الإيمان لا يكون بكلمة وإنما بشيء أقوى من ذلك، وهو نور السراج المحمدى الذى ملأ القلب بالإيمان، وما قولك فى عثمان بن عفان والزبير بن العوام بن خويلد وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله إلى آخر هذه اللمة المباركة من الصحابة الذين ثبتوا على الدعوة وحملوا لواءها وأثبتوا للبشر جميعًا أن الإسلام بالفعل نور: نور الدعوة ونور القرآن ونور السراج الذى هو محمد صلوات الله عليه.

وهؤلاء هم الصحابة من المكيين أسود الإسلام الأول وأنواره رضى الله عنهم ورضوا عنه. وقد ظلوا فئة قليلة طوال الفترة المكية وهى ثلاثة عشر عامًا، وقد دخل الإسلام فى أثنائها فئة جليلة من بينها حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب،

وخبر إسلام عمر يدل بالفعل على أن نوراً دخل فى نفسه فنقله من الكفر إلى الإسلام، فقد كان أول الأمر منكراً للإسلام مبغضاً لمحمد، وفي خبر إسلامه أنه ذهب إلى دار أخته فاطمة ليعاقبها وزوجها سعيد بن زيد بن نفيل، وضربها فعلاً وشج رأسها فنهضت في وجهه وأصرت على إسلامها، فلما رأى الدم فى وجهها استحى وطلب منها أن يقرأ صفحة القرآن التى كانوا يقرؤنها عند دخوله، وكانت تضم سورة «طه»، فلما قرأ آياتها الأولى دخل نفسه إيمان لم يعهده، وطلب أن يرى محمداً ليسلم على يديه، وذهب إليه في دار الأرقم، والصحابة الذين كانوا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تخوفوا منه، أما رسول الله ﷺ فلم يتخوف ولا عرف الخوف قلبه فى الإسلام قط. ولما رأى عمر حزم محمد وقوته أعلن أنه إنما أتى ليسلم، وآمن، فكبر أهل البيت وعزت نفوسهم بإسلام عمر، وقد كان عمر إذ ذاك شاباً فى الثلاثينات الأولى ولكنه كان رجلاً شجاعاً قوياً تهابه كل قريش. وقد أسلم قبله بعام حمزة عم النبى، وكانت سنه سن محمد، وكان فارساً مهيباً. ولكن لم يكن للرجلين أثر بعيد فى سير الإسلام طوال الفترة المكية، وظل العبء كله على محمد وأبى بكر، ولكن إسلام الرجلين هز قريشاً وأشعرها أن الإسلام قوة، وإذا كان نور السراج لم يدخل قلب حمزة وعمر كاملاً لأول إسلامهما إلا أنه دخل فيما بعد أو أصبح هذان الرجلان رمزاً على قوة الإسلام وتوهج نوره.

ولكن أقوى الصحابة وأكثرهم شعوراً بنور الإسلام كانت خديجة أولاً ثم أبو بكر. وكان كلاهما يعيش فى نور الإسلام ورسوله فعلاً.

وإن الإنسان ليزداد اعجابه برسول الله ﷺ كلما دخل فى تفاصيل تاريخ الدعوة، فقد كان فعلاً سراجاً منيراً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأمره، وما استطاعت قريش أن تخيفه قط، وعندما اشتد أذاها لصغار أصحابه نصحهم بالهجرة إلى الحبشة، فقد كان فيها ملك عادل لا يضام الناس فى أرضه، وفى بعض الأوقات خلت مكة من المسلمين إلا نفراً قليلاً على رأسهم رسول الله وأبو

بكر وعمر وحمزة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وهؤلاء هم كبار الصحابة وزعماء الأصحاب الذين كلفوا قريشًا رغم قلة عددهم عنتًا بالغًا وأخافوها فعلاً حتى ملكت الحيرة قلوب زعماء الكفر وخافوا علي مصير تجارتهم وعلي موسم الحج الذى كان يأتيهم بكسب كثير.

وقد استطاعت قريش بعد نحو عشر سنوات من الصراع مع الإسلام أن توقف تقدم الدعوة وقد جربت قبل ذلك شتى الوسائل فى صراعها مع محمد وأصحابه دون جدوى حتى أعلن الوليد بن المغيرة - وكان من أهل العقل والخبث - أن القرآن سحر، وكان أهل مكة يعرفون السحر وأهله، وكانوا يعرفون أنه نوع من القوة يؤتاه بعض الناس فتمكن لهم من التأثير على أعين الناس وآذانهم وعقولهم دون أن يكون وراء ذلك شيء حقيقي، والقرآن الكريم يؤكد ذلك فيقول في سورة الأعراف في مجال المباراة بين موسى وسحرة فرعون: (قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملونَ) [الأعراف: ١١٦-١١٨] وإذن فسحرة فرعون سحروا أعين الناس وخيلوا إليهم أنهم يرون أفاعي تسعى دون أن تكون وراء ذلك حقيقة، وخاف الناس من ذلك وملأت قلوبهم الرهبة وأما موسى فقد تحولت عصاه إلى أفعى بحول الله فلقفت ما ألقوا. فوقع الحق وبطل ما كانوا يفعلون.



(والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا)

ذكرنا في مقالنا الماضي ما كان من زعم من قريش في صراعها مع محمد ﷺ أنه ساحر وأن القرآن سحر وقد كان لهذا القول من قريش أثر فعال حقاً، فما من أحد يسمع كلام محمد ﷺ ويتأثر به إلا قالوا له: لا عليك ولا تلق بالاً لما تحس به الآن. فهذا سحر لاحقيقة له ولا يلبث أن يزول أثره. ونتيجة لذلك لم يعد لكلام محمد ﷺ تلك القوة التي كانت له على الناس، فتوقف انتشار الدعوة في مكة في الظاهر على الأقل. واستراحت قريش. واضطر رسول الله ﷺ إلى البحث عن ميادين أخرى لنشر الدعوة. فذهب إلى الطائف، ثم اتصل بأهل المدينة ودخلت الدعوة في دور جديد.

وهذا الدور يتمثل في دخول أهل المدينة في الإسلام، ثم انتقال محمد ﷺ نفسه ودعوة الإسلام إلى المدينة المنورة. وأهل المدنية هم الذين سموا بالأنصار، وكانت بدايتهم في بيعة العقبة الأولى، وقد أسلم منهم فيها ستة نفر، ثم التقى بهم رسول الله ﷺ اللقاء الثاني وهو لقاء العقبة الثانية. وكان عدد من لقيه منهم وأسلم على يديه سبعين رجلاً وامرأتين، والشائع أن الله سبحانه هو الذي سماهم بالأنصار وشبههم في الآية الثانية والخمسين من سورة آل عمران بالحواريين أنصار عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون ﴾ وجاء في سورة الصف: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين ﴾ [الصف: ١٤] وقد يكون الاسم قد أطلق أولاً على من أسلم من الأوس والخزرج ثم جاءت آيات القرآن الكريم تؤيد ذلك.

وأصبحت هذه التسمية علما ظاهراً على المسلمين من الأوس والخزرج من أهل المدينة، وزادت ظهوراً عندما أطلق على من قدم المدينة من أهل مكة، ومن أنضم إليهم من المسلمين اسم المهاجرين. وعندما تجلى فضل الأنصار وما بدا من إخلاصهم وصدق إيمانهم واستعدادهم الكامل للبذل والتضحية في سبيل الإسلام وجماعته، كرمهم الله في القرآن الكريم بآيتين من سورة الأنفال. فقد جاء في الآية ٧٢ من تلك السورة ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ وجاء في الآية ٧٤ من نفس السورة ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ . وقد اقتصرت تسمية الأنصار على الأوس والخزرج وأوليائهم من أهل المدينة. أما لفظ المهاجرين فقد شمل القرشيين والمكيين وغيرهم ممن هاجر إلى المدينة وأسلم ودخل في أمة الإسلام، مثل أبي ذر الغفاري وهو جندب بن جنادة من غفار.

* * *

من هؤلاء جميعاً تكون الصحابة، وهو اسم جمع جرى مجرى العلم ونسب إليه، فقيل صحابي وجمع على صحابة، وقيل الصاحب وجمع على الأصحاب، وهم السعداء الذين عاشوا في نور النبوة وسعدوا بالسراج المنير. والحق أنك عندما تقرأ السيرة وتقرأ الصحابة تشعر بالفعل أنهم نشأوا في نور غير عادي.

فماذا كان مثلاً أبو بكر أو عمر وغيرهما من أوائل الصحابة قبل أن يدخلوا الإسلام ويستضيئوا بنور النبوة؟

حقاً إن أبا بكر كان قرشياً ممتازاً، ولكنه لم يزد على ذلك، وكان في قريش كثيرون مثله، فلما أسلم تبدل حاله وأصبح قائداً من قادة الدنيا، وعمر الذي كان شاباً مغامراً من شباب قريش يقضي وقته في الصيد والمتاع، يصبح رجلاً غير عادي، يصبح صانعاً للتاريخ وقائداً للرجال، يجرى لسانه بالحكمة وينفذ بصره إلى

أعماق الأمور ويسرى في كيانه نور النبوة، فنجد لسانه يجري بكل عجيب، إنه يصبح رجل الحق الذي لايقول إلا الحق، ويرى من الأمور أبعد وأعمق مما يراه غيره، وأنت تعرف طبعاً الكثير من عبقرية عمر، وتعرف كذلك أنها عبقرية إسلامية خالصة لم يعرفها عمر إلا بعد أن أسلم وصحب الرسول ﷺ وعاش في نور النبوة، وإليك مثالاً واحداً يغني عن الكثير، أنت تعرف طبعاً آية القرآن الكريم التي تقول ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران ١١٠] ومعظم المسلمين يحسبون أنهم خير الناس لمجرد أنهم مسلمون مع أن بقية الآية توضح سبب الخيرية وتبين شرطها، وعمر دون تردد يقول من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها[١] . أي أن عمر يعرف أننا لن نكون خير الناس إلا إذا قمنا بجواب شرط الله ، وإذا أردنا أن نكون خير الناس فلا بد أن نؤمن إيماناً عميقاً ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وبدون ذلك لن نكون خير الناس.

وبقية الصحابة يحتلون المكانة التي يحتلونها في تاريخ الإسلام لأنهم عاشوا في نور النبوة وقبسوا من نور السراج المحمدي، ومكان الواحد منهم يتحدد بما قبس من ذلك النور، فمن الناس من صحبوا الرسول ولكنهم لم يقبسوا إلا القليل من نور السراج، ولهذا فليس لهم إلا مكان صغير في تاريخ هذه الأمة.

وأنا عندما أنظر في أمر واحد من الصحابة فإنني أقسمه قسمين، القسم الذي قبس من نور محمد ﷺ وهذا عندي إنسان عظيم جليل غير قابل للنقد، والقسم الثاني هو الإنسان الذي لا يتأثر بالأنوار المحمدية وهذا عندى واحد من الناس.

ومع ذلك فإننى فيما يتعلق بالصحابة أتبع قول رسول الله ﷺ :«لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه» [والمد شيء فى سعة القدح والنصيف نصفه] فأنا لا أجيز نقد الصحابة، لأنهم صحبوا محمدا ﷺ صلوات الله عليه وعاشوا في نور النبوة ووهبوا أرواحهم وأموالهم لهذا الدين.

ولكن هل تطلق تسميه الصحابي على كل من عاش في عصر الرسول وصحبه ولو لفترة قصيرة أو كان بينهما اتصال عابر؟ لانظن. ولو أن الذين ألفوا كتب الصحابة توسعوا في ذلك حتى أصبحوا ألوفاً كثيرة، ونظراً للشرف العظيم الذي كان الرجل يفوز به عندما يحسب في الصحابة فقد دس الناس فيهم أسماء كثيرة، وأضافت كل قبيلة من عندها ناساً طلباً للشرف حتى أضافوا إليهم رجلاً يسمى أبا الطفيل عامر بن وائل الكناني أسلم وعرف الرسول قبيل أحد ولم تكن بينهما صلة تذكر، وكانت سنه عندما عرف الرسول ثماني سنوات، ومن العسير أن يكون له دور في تاريخ الإسلام، ولكن هذا الرجل مذكور في كتب الصحابة.

وتمييز الصحابة والتحقق من صحابيتهم هو الموضوع الأكبر الذي شغل أصحاب كتب السنن، فهم لايذكرون رجلاً فيها إلا بعد دراسة وتحقيق حتى إذا روى عنه حديث من أحاديث الرسول كان ذلك صحيحاً، وقد قسموهم إلى طبقات ودرجات، فمنهم القوى المؤثوق في صحبته وصدقه ومنهم الضعيف الذي لايوثق فيه، ومنهم من أخرجوهم من جماعة الصحابة تماماً، وفي أيامنا هذه ألف رجل عراقي كتاباً في ثلاثة مجلدات ضم ألفي اسم ونيفاً كلهم لصحابة مكذوبين، أي لا مكان لهم في الصحبة، ولا موضع لهم في رواية حديث، والحق أن الأمر عسير كل العسر.

* * *

ولم يقتصر الأمر على ادعاء الصحبة، بل حدث تغيير وتبديل في الدرجات، وكتب الرجال تضع في المواضع الخامس أو السادس أو السابع أو الثامن من الصحابة رجالاً لم يسلموا ولم يتصلوا بالرسول الأكرم ﷺ إلا أواخر أيامه، ولم يكن لهم في الإسلام شأن.

والعبرة عندنا في خلق المنسوب إلى الصحابة وتصرفه في الأمور، فهناك ناس لانشك لأول ما نقرأ السيرة في صحابيتهم من أمثال خديجة وأبي بكر وزيد بن

حارثة وعلى بن أبي طالب وأبي عبيدة عامر بن الجراح وعائشة رضي الله عنها ومن في هذا المستوى، وهؤلاء ليسوا مجرد أسماء ترد في السيرة وإنما هم رجال ونساء لهم دور فيها، ولا يتيسر لك كتابتها إلا بذكر أسمائهم، لأن رسول الله ﷺ بذل جهداً في صنعهم وتكوينهم، هو لم يصنع تلك السيرة العطرة وحده، ولم يكن يستطيع صناعة تاريخ الإسلام وحده، وإنما هو صنع الرجال والنساء وصنع تاريخ الإسلام الأول مشتركاً في ذلك مع هؤلاء الناس الذين هم كبار الصحابة.

وقد بذل رجال السنة أكبر الجهد في التعريف بالصحابة وبيان ما اشتهر به الكبار منهم من جليل الصفات، وبهذه المناسبة نذكر عبارة لرجل من الأصحاب يقول برواية أبي عمر بن عبد البر: قال أبو عمر: إنما وضع الله عز وجل أصحاب رسوله الموضع الذي وضعهم فيه بثنائه عليهم من العدالة والدين والإمامة لتقوم الحجة على جميع أهل الملة بما أدوه عن نبيهم من فريضة وسنة، فصلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين، فنعم العون كانوا له على الدين في تبليغهم عنه إلى من بعدهم من المسلمين.

ومن الأحاديث التي يروونها في بيان ميزات نفر من الصحابة قوله ﷺ : إن أرأف أمتي بأمتي أبو بكر وأقواها في أمر دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأقضاها علي، وأقرؤها أبي (بن كعب)، وأفرضها زيد (بن ثابت). وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. ولا أدري لماذا يجد بعض الناس في نفسه شيئاً من أمثال هذه الأحاديث التي تفضل بعض الصحابة، مع أن هذه الأحاديث التي تذكر في أبواب المناقب تهدف إلى بيان ما يمتاز به بعض الصحابة لبيان فضله ومكانته ومنزلته.

* * *

وقد كان الأوس والخزرج أعداء قبل دخولهم في الإسلام وانتقال رسول الله ﷺ إليهم، ومن أعجب ما يتسوقف النظر أن هذه العداوة انتهت بعد الهجرة،

وصار الفريقان أخوة لايفرق بينهم شيء، ويجمعهم لقب الأنصار وتجتمع قلوبهم جميعاً على رسول الله ﷺ ، ولم يعد بينهم بحال علاقة إلا في الإسلام والاجتهاد في إرضاء الله ورسوله.

ولكن التفرقة بين المهاجرين والأنصار ظلت قائمة، وكان المصرون عليها هم المهاجرين، ربما لأنهم كانوا يخافون أن يضيعوا في الزحام، فقد كان عددهم بالنسبة للأنصار قليلاً، وكان هؤلاء الآخرون يبذلون جهداً غير عادي في سبيل الإسلام.

وكان عمر بن الخطاب دائماً حريصاً على أن يتميز المهاجرون بأنفسهم، وكان رسول الله ﷺ يتدخل أحيانا ليخفف من نزوع عمر، فقد كان عمر قرشياً خالصاً وإن كان ألد أعداء القرشيين الكفار. وقد ظهرت فيه تلك القرشية يوم السقيفة وما بعدها، ولكنه تغير تماماً عندما صار خليفة فقد غابت فيه كل نزعة إلا نزعة الإسلام، واستوى في نظره الناس جميعاً، وكان رسول الله ﷺ يحب عمر ويعرف فضائله، ولكنه كان حريصاً على ألا يحس أحد منه بذلك، ولأبي عمر بن عبد البر هنا عبارة جميلة في مدخل كتابه الجليل: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، فقد روى الحديث الذي سبق ذكره وهو: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر.. إلى آخر الحديث ويضيف إليه: «وأبو هريرة وعاء العلم، وعند سلمان علم لايدرك، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، ثم يقول ابن عبد البر: فضل رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة من أصحابه بفضائل، خص كل واحد منهم بفضيلة وسمه بها وذكره فيها، ولم يأت عنه عليه السلام أنه فضل واحداً منهم على صاحبه بعينه من وجه يصح، ولكنه ذكر من فضائلهم ما يستدل به على مواضعهم ومنازلهم من الفضل والدين والعلم، وكان ﷺ أحلم وأكرم معاشرة وأعلم بمحاسن الأخلاق من أن يواجه فاضلاً منهم بأن غيره أفضل منه فيجد من ذلك في نفسه، بل فضل السابقين منهم وأهل الاختصاص به

على من لم ينل منازلهم فقال لهم: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه..»[١] .

وعلى كل حال فنحن نلاحظ من دراسة السيرة أن المهاجرين كان فيهم بعض نظر إلى السياسة والمكانة في حين أن الأنصار من يوم دخلوا الإسلام لم يعرفوا إلا الإسلام ورسوله. وكانوا كرماء بأنفسهم وأموالهم بصورة لانعرفها في غيرهم، وكتب السيرة حافلة بالتمدح فيما أنفق عثمان مثلاً في سبيل الإسلام، حتى ليقال إنه كان أكرم الصحابة في هذا الوجه، مع أن سعد بن عبادة كبير الخزرج لم يكن أقل كرماً، فما ضن في يوم من الأيام على الإسلام بشيء، وكان رسول الله ﷺ يرى هذا من عمله ويعجب به، وقد ظهر كرمه هذا في غزوة الغابة ظهوراً عظيماً. قال الواقدي: واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وأقام سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة خمس ليال حتى رجع رسول الله ﷺ وبعث إلى النبي ﷺ باحمال تمر وبعشر جزائر (الجزور هي الناقة) بذي قرد، وكان الذي حمل ذلك إلى رسول الله ﷺ قيس بن سعد، فقال له رسول الله ﷺ : ياقيس بعثك أبوك فارساً وقوي المجاهدين وحرس المدينة من العدو اللهم ارحم سعداً وآل سعد. ثم قال رسول الله ﷺ : نعم المرء سعد بن عبادة، فتكلمت الخزرج فقالت: يارسول الله هو بيتنا وسيدنا وابن سيدنا كانوا يطعمون في المحل ويحملون الكل ويقرون الضيف ويعطون في النائبة ويحملون عن العشيرة، فقال النبي ﷺ : خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين[٢] .

* * *

وقد تميز الأنصار بزهد عظيم في شئون الدنيا، وكان إخلاصهم لدين الله ورسوله فحسب، ويتجلى هذا في يوم السقيفة حين استمسك المهاجرون بحقهم في

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ١/١٨ .
(٢) المغازي للواقدي ٢/٥٤٦ ، ٥٤٧ .

الخلافة بعد محمد ﷺ وقال عمر وأبو بكر في ذلك كلاماً كثيراً، فقام واحد من كبار الأنصار وهو بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير، وقال كلمة تعبر لنا تعبيراً جليلاً عن زهد الأنصار في الدنيا وتمسكهم بالدين فحسب، فقال: يامعشر الأنصار: إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لايراني أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولاتخالفوهم ولا تنازعوهم(١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٢١.

النقباء الاثنا عشر والشورى وأسعد لقاءات التاريخ

إذا أردت دليلاً لايحتمل الشك على صدق محمد ﷺ وصحة رسالته فاقرأ خبر لقائه مع أهل المدينة وقبولهم الإسلام وتحولهم من قوم من العرقيين لا يعرفون غير الحرب والعداوة إلى مؤمنين بالله ورسوله وهداة للناس وصناع تاريخ.

فقد كان محمد ﷺ قد أنفق غاية الجهد في دعوة أهل مكة فلم يبلغ منهم إلا القليل، ثم وصفوه بأنه ساحر فلم يعد له على الناس الأثر الذي كان له فيما سبق. فصار الرجل إذا استمع إليه ولان قلبه واقترب من الإسلام زعم له كفار قريش إن هذا سحر ووهم لا يلبث أن يزول فيتوقف ويرتد عن الدخول في الإسلام.

وكان أعداء محمد والإسلام في مكة هم كبار الناس وسادة قريش وأصحاب المال والثروة، ولم يكن الإسلام يخيفهم في شيء وإنما كانوا يخافون على مراكزهم في المجتمع فهم سادة الناس ورؤساؤهم والإسلام يقول لهم إن الناس إخوة، كلهم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي ولا لسيد على عبد ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. والتقوى هنا ليست مجرد خوف من الله، لأن المؤمن الحق لايخاف الله فقط بل يحبه، وهذا الحب يصل بالإنسان إلى درجة الخوف من مخالفته بارتكاب المعاصي، وتلك هي التقوى، فنحن المؤمنين لانخاف الله وإنما نخاف غضبه، وكفار مكة كانوا يعرفون الله ولكنهم كانوا لايخافونه، وإنما هو عندهم سيد الألهة وهو لاينفرد بالألوهية عندهم، وهم يشركون معه آلهة يختارونها بأنفسهم ويصنعون لها الأصنام ويعبدون هذه الأصنام تقرباً لله وزلفى، ويسودون الناس بهذه الأصنام ويجتذبونهم إلى مكة ليقوموا بالحج إلى الله ومجمع الألهة حول الكعبة، وفي مكة كانوا يستخرجون منهم أموالهم بأساليب شتّى من الضلال والدجل، فقد زعموا أنهم الحمس أي أصحاب الدين وسدنة

الكعبة، وإن بقية الناس حِل (بكسر الحاء) وعليهم أن يأكلوا طوال فترة الحج من طعام يشترونه من أهل مكة، ويلبسوا لباساً يشترونه منهم أو يطوفوا بالبيت عرايا، وكل الناس يحجون من عرفة، وهم يحجون من مزدلفة تمييزاً لأنفسهم عن بقية الخلق، وتلك كلها ميزات كانت تجعلهم سادة الناس وأغنى الناس، فكيف يضحون بها ويقبلون الدخول في دين يفقدون فيه هذه المزايا جميعاً..

ثم يموت أبو طالب عم رسول اللّه ورأس قريش وكبير بني هاشم، ولم يكن أبو طالب بالنصير القوي لرسول الله، بل هو لم يكن أقوى رجال مكة، فقد انتزع الرئاسة الفعلية منه رؤساء بني عبد شمس وبني مخزوم وحلفاؤهم من الأغنياء المهرة في شئون التجارة وقيادة الناس، ولكنه كان على أي حال شيخاً كبيراً يوقره المكيون ويجعلونه وسيطاً بينهم وبين ابن أخيه القوي المتمسك بدينه المصر على أن يدخلهم جميعاً فيه، وعندما مات تولى رياسة بني هاشم أخوه أبو عتبه واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، ولكن اللّه ورسوله سمياه أبا لهب بسبب كراهته البالغة لرسول اللّه والإسلام، وكان أبو لهب قريب السن من أخيه حمزة ومن محمد أيضاً، وكان عبد العزي كثير العدوان على أخيه حمزة وهم صغار، فكان رسول اللّه ينصر حمزة عليه، فكان يقول له: أنا عمك وهو عمك فكيف تنصره علي؟ واللّه لن يحبك قلبي أبداً ! فالعداوة إذن كانت قديمة، فلما تولى رياسة بني هاشم طلب إلى محمد أن يترك دعوته وإلا فهو لو ينصره، فلما رفض محمد ظل بلا نصير، ولم يكن ذلك ليعني محمداً كثيراً فقد كان اعتماده على الناس قليلاً، إنما كان اعتماده الأكبر على اللّه سبحانه وتعالى.

وماتت زوجه أم المؤمنين خديجة رضي اللّه تعالى عنها، وكانت خسارته فيها جسيمة حقاً فقد كانت خير النساء وأعظم المؤمنات، وكانت لرسول اللّه خير سند ما عاشت، ولكن حصر بني هاشم في الشعب، وحرمانها من الطعام هي وبناتها أجهدها، وكانت قد تخطت الستين بقليل، وقد حزن محمد عليها حزناً بالغاً، وكان يلجأ كثيراً بعد موتها إلى ابنة عمة أم هانيء بنت أبي طالب للعناية ببناته، ولم تكن

أم هانيء قد أسلمت ولكنها كانت عظيمة الإعزاز لمحمد ﷺ وفي ليلة الإسراء والمعراج كان في بيتها، فلما جاءته تلك الكرامة الكبرى والعزاء العظيم من الله وجاء الصبح حكى ما كان من الإسراء به لها فلم تصدق، وخافت على محمد أن ينفر الناس من حديثه هذا وحذرته من أن يقصه على الناس، أما هو فقد وجد في الإسراء ثم المعراج إكراماً عظيماً من الله له، فقد جاءاه في وقت بلغ فيه انصراف أهل مكة عن الإسلام أقصاه، فكأن الله سبحانه أراد أن يقول له: إن كان هؤلاء الجهلاء الكفار ينكرون رسالتك فأنا أريك أنك أعظم الأنبياء وأشرف الرسل، وأنا آخذك في ليلة واحدة إلى القدس حيث تصلي في المسجد الأقصى بالأنبياء جميعاً، ثم أعرج بك إلى السماء حيث ترى أنك أعظم عندي من عيسى وموسى وإبراهيم ونوح، وتصلي بهم، تقترب من نوري وترى كرامتك! فأصر محمد على أن يقص الخبر - الذي هو معجزة من معجزاته - وقال لأم هانيء: والله لأحدثنهموه! وحدثهم به فعلاً، فلم يصدقه الكثيرون وارتد عن الإسلام بعض من كان أسلم ولكن أبا بكر صدق الخبر لأول ما سمعه من رسول الله، ومن ذلك الحين سماه رسول الله أبا بكر بالصديق.

* * *

وأصبحت حياة محمد ﷺ وعمله في مكة من ذلك الحين أشد عسراً مما كانت، فإن أهل مكة - غير المسلمين - وقفوا منه موقفاً جامداً، فرأي الخروج إلى الطائف ليدعو أهلها من ثقيف إلى الإسلام ولم يصطحب معه في هذه المحاولة الصعبة إلا مولاه زيد بن حارثة، ولم يجد الرسول عند الثقفيين قبولاً وهذا طبيعي، فقد كان رؤساء ثقيف حلفاء كفار قريش وأصهارهم، فأغرى الثقفيون به صغارهم فألقوا عليه الحجارة وأدموا قدميه الشريفتين حتى صار خارج البلد، وجلس والدم يسيل من قدميه في ظل حائط، وهو سور الحديقة، وهناك توجه إلى ربه بأجمل وأصدق دعاء توجه به إنسان إلى الله تعالى، إنه دعاء وإعلان محبة وتعبير صادق عن إيمان لا يوصف، وهو يبدو لمن يقرؤه وكأنه قطعة من الشعر، قال: اللهم إليك

أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك..

ونهض الرسول الأكرم بعد ذلك عائداً إلي مكة، ويغفل الكثيرون عن أن عودته ﷺ كان مشكلة إذ ذاك فإن أبا لهب كان قد رفع حمايته عنه، وكان يستطيع بعد ذلك أن يعيش في مكة ما شاء مادام هادئاً ساكناً ولكنه الآن وقد غادر البلد فأنه لم يكن ليستطيع العودة إليه والعيش فيه آمنا إلا في جوار أحد كبار المكيين، ووقف الرسول في نخلة اليمانية يتدبر هذا الأمر، وسأله فيه زيد بن حارثة، فقال له: يازيد إن اللّه جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن اللّه ناصر دينه ومظهر نبيه، ثم تقدم إلى حراء، ومن هناك أرسل إلى اثنين من المكيين يطلب الجوار فاعتذرا خوفاً من قريش، ولكن المطعم بن عَدىٌّ قَبِل، وكان من رجالات قريش، وهو حفيد نوفل بن عبد مناف، ولم يسلم ومات قبل بدر، ولكن ابنه جبير بن المطعم بن عدي أسلم، وهو الذي خطب عائشة رضي اللّه عنها قبل رسول الله، ولكنه تخلى عنها عندما علم برغبة رسول اللّه فيها، ودعا المطعم بنيه وقومه فقال: تلبسوا بالسلوح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً، فدخل رسول اللّه ﷺ ومعه زيد بن حارثه حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يامعشر قريش إني قد أجرت محمداً، فلا يهَجْهُ أحد منكم ! فانتهى رسول اللّه إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، ومطعم وولده مطيفون به[1] .

* * *

(١) النويري، نهاية الأرب ١٦ / ١٨٢.

ولم يكن رسول الله ﷺ يستطيع مواصلة الدعوة في مكة لأن قريشاً – قبيلة المطعم بن عدي – لاتريد هذه الدعوة وهو – أي المطعم بن عدي – لايستطيع أن يغضبها، وكان رسول الله يعلم ذلك فتوقف عن الدعوة بين المكيين واتجه إلى خارج مكة، فكان يخرج من مكة ويدعو الناس، وكانت الاستجابة قليلة، لأن الناس كانوا يرون ما بينه وبين قبيلته من الخلاف فلا يستمعون إليه ويقولون: قومه أعلم به.

وكان هذا من كرامة الله سبحانه إياه، فهو الذي دفعه إلى الاتجاه إلى القادمين من المدينة ودعوتهم، ولم يكن القرشيون يحظرون عليه الاتصال بالوافدين على البلد ودعوتهم، وعندما تقرأ خبر اتصال الرسول بالمدنيين تحس أن الله سبحانه كان من وراء هذه الدعوة، وسبحانه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

فإن أهل مكة رفضوا الدعوة، وكان ذلك خيراً للإسلام، لأن الدعوة لو كانت قد لقيت القبول من قريش ودخل كبار المكيين في الإسلام، فقد كانوا سيدخلون متعالين حاسبين أنهم تنازلوا عندما قبلوا الإسلام، ولعلهم كانوا يطلبون لأنفسهم ميزات دنيوية، فأراد الله أن يرفضوا حتى لايدخلوا الإسلام إلا بعد أن يروا أن ما كانوا يرون لأنفسهم من ارتفاع القدر لم يكن إلا غروراً وزيفاً، وأن الإسلام لايدخله أحد إلا وقد آمن بعزته وجلاله وخضع لأمر الله وآمن بالقرآن غير متكبر أومتعاظم.

ورواتنا لأخبار السيرة يخلطون هنا خلطاً شديداً فمنهم من يقول إن لقاء الرسول بأهل المدينة كان قبل موقعة بعاث، وهو لا يكون إلا بعدها، لأن الخزرج انهزموا في هذه المعركة، وكان اليهود حلفاء الأوس، فأرسلوا نفراً منهم إلى مكة ليكلموهم في أمر معاونة الخزرجيين على الأوس،وكان أول لقاء لرسول الله معهم قصيراً جداً ولا يمكن أن تتم فيه بيعه، وكانوا نفراً قليلاً أتى إلى مكة ليستطلع الأمر، ولم يستمع لحديث رسول الله فيهم إلا رجل واحد يسمى إياس بن معاذ أحس بميل إلى كلام رسول الله ويقولون إنه قد أسلم، وقد مات هذا الرجل بعد قليل، ويرى المسلمون أنه مات مسلماً لأنه كان يكبر ويهلل، أما كبير الوفد وهو أبو

الحيسر أنس بن رافع فقد أخذ حفنة من تراب خضب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا.

أما العقبة الأولى التي تعتبر معلماً فاصلاً من معالم التاريخ فكانت مع جماعة من أهل المدينة من الخزرج أكثر عدداً، وفي خبر لقائهم مع رسول الله ﷺ يقول ابن إسحاق، وكلامه هنا ذو مغزى تاريخي عميق وإن كان يبدو لنا مجرد كلام بلا معنى، قال: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كماكان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً(١) .

والعقبة كانت إذ ذاك ممراً في جبل إلى شمال مكة في الطريق إلى مِنى لأن المدخل إلى المدينة من الجنوب لا يكون إلا عن طريق قباء. وكان خبر بعاث قد انتشر وعرفه الناس، وعرفه أيضاً رسول الله، وكان اليهود حلفاء الخزرج في الماضي، ولكنهم في معركة بعاث انضموا إلى الأوس، فكان الخزرج يلتمسون حلف قريش على الأوس واليهود معهم، وكان اليهود إذا جرى بينهم وبين الخزرج حديث بعد موقعة بعاث هددوهم بقولهم «إن نبيا مبعوثا الآن، قد أظل زمانه فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم»، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: ياقوم، تعلّموا! والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ! فلا يسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك(٢) .

---

(١) ابن إسحاق برواية ابن هشام ٢/٧٠.
(٢) المصدر السابق ٢/٧٠ ، ٧١.

وهذا الحديث يدلك على أن الله سبحانه إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه، فمحمد كانت أمامه قضية كبرى وهي نشر هذا الدين وإخراجه من ذلك المأزق المسدود الذي وضعه فيه القرشيون، والخزرج ومعهم الأوس أيضاً كانوا في خطر الفناء بهذه الحرب الأهلية القائمة بينهم وبين الأوس يؤجج نارها اليهود، ينضمون إلى هؤلاء حينا وإلى أولئك حينا لكي يسودوا الجميع، وهم - على عهد اليهود دائماً - ينتظرون النبي الذي يتحقق على يديه وعد الله للبشر، ولكنهم كانوا يشترطون أن يكون هذا النبي من أسباط اليهود من أولاد إسحاق بن إبراهيم، ولا يكون من غيرهم أبداً؛ لأن الله عند اليهود ليس إله العالمين بل إله اليهود وحدهم، ولهذا رفضوا عيسى وكذبوه؛ ولهذا أيضاً انتظروا محمداً ﷺ ولكنهم في ذلك الحين كانوا ينتظرون خروجه من بين ظهرانيهم فإذا هو خرج نصرهم على غيرهم من بني آدم وأذلهم.

لهذا تفتحت قلوب هذا النفر من أهل المدينة لدعوة محمد ورأوا أن يسبقوا اليهود إليه، ورجوا أنه ربما يكون الرجل الذي يجمعهم الله عليه وعلى دينه فينجوا من الهلاك ومن إذلال اليهود لهم.

فلما قبلوا الإسلام ودخلوا فيه كان ذلك مخرجاً للإسلام من مأزقة، وكان ذلك في نفس الوقت مخرجاً لأهل المدينة من الهلاك. فكان محمد والإسلام مخرجاً لأزمة المدينة، وكانت المدينة مخرجاً للإسلام من التوقف وفتحاً لأبواب الدنيا له، وكان هذا من أسعد لقاءات التاريخ، فمستقبل الإسلام في المدينة ومستقبل المدينة في الإسلام.

* * *

وعندما تتأمل أسماء النفر الستة الذين أسلموا على يد رسول الله في تلك العقبة الأولى نجد أنهم لم يكونوا أي رجال، وإنما كانوا رجالاً ممتازين اختارهم الله سبحانه لهذا الموقف العظيم.

أولهم أبو أمامة أسعد بن زرارة وكان من بني مالك بن النجار، وكان عقبياً، أي من أهل هذه العقبة الأولى والثانية التي تليها وكان نقيباً أي واحداً من الاثني عشر أنصارياً الذين طلب رسول الله من الأنصار أن ينتخبوهم ليكونوا أهل شورى إلى جانب أهل الشورى من المهاجرين، وكان نقيبهم رسول الله ﷺ ومعه نفر من خيرة أهل مكة، فيهم أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة عامر بن الجراح وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ومن في مستواهم، لأن رسول الله أراد منذ الوهلة الأولى أن تكون أمة الإسلام أمة شورى.

ويقال إن أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس خرجا مع ذلك النفر من الأنصار يتنافران إلى عتبة بن عبد شمس وكان من كبار المكيين فلقيا رسول الله وأسلما وعادا إلى المدينة دون أن يلقيا عتبة، وهذا الخبر يدل على أن أنصار العقبة الأولى لم يخرجوا من المدينة إلى مكة بغرض واحد، وإنما جمعهم في هذا الخروج الحظ السعيد الذي أراده الله لهم.

وذكر ابن إسحاق أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من جَمَّعَ بهم بالمدينة في موضع يسمى بقيع الخينمات، وهذا الموضع هو الذي سيقوم فيه المسجد الجامع، وهذا خبر لطيف يدل على ما جعل في قلوب هؤلاء الناس من الإيمان بالإسلام لأول ما عرفوه، فهذان الرجلان لم يجدا أولاً ما يدعوهما إلى التنافر إلى عتبة بن ربيعة وعادا إلى المدينة وقد نسيا ما بينهما، وثانيا نجد أن هذا الرجل يجمع بأهل المدينة أي يصلي بهم جماعة، ولم يكن المسلمون إذ ذاك يصلون جماعة في مكة، وإنما كانوا يصلون فرادى ومستخفين، وليس من الضروري أن تقرأ الخبر بتشديد الميم وكسرها لأن صلاة الجمعة لم تكن قد شرعت بعد.

ومن أطرف ما نقرأ إن عدد المسلمين في المدينة - وقبل مجيء مصعب بن عمير - كانوا أربعين، ومعنى هذا أن ذلك النفر القليل الذي أسلم في العقبة الأولى قاموا بدعوة واسعة في المدينة وكسبوا مسلمين، فهل هناك دليل هو أبلغ من ذلك

على أن اللّٰه سبحانه أراد لأهل المدينة الخير بذلك اللقاء الأول الذي قد يظن بعض الناس أنه كان مصادفة.

*   *   *

النقباء الاثنا عشر والعصر الجديد

توفى أسعد بن زرارة قبل بدر فى بداية السنة الثانية للهجرة. أصابته ذبحة، ويزعم بعض المؤرخين أن الرسول كواه لكى يشفيه. ولكنه مات. وأغلب الظن أن ذلك خطأ لأن الذى كواه رسول الله على سبيل العلاج هو سعد بن معاذ.

وأما ذكوان بن عبد قيس الزرقى أى من بني زريق من الخزرج فقد عاد من المدينة وبقى مع رسول اللَّه فى مكة حتى هاجر معه إلى المدينة فهو مهاجرى أنصارى، وقد قُتِل يوم أحد.

وبقية الستة الذين أسلمو فى تلك العقبة الأولى هم عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عفراء. وهو من بني زريق من الخزرج، وأمه عفراء من بني غنم بن مالك بن النجار. وقد استشهد عوف فى موقعة بدر.

ورافع بن مالك بن العجلان ، وقد شهد العقبتين الأولى والثانية. وحضر بدرا وإن لم يذكره ابن إسحاق فى البدريين، وقد استشهد فى أحد . وكان رافع عقبيًا نقيبًا بدريا. وسنتكلم عنه فى حديثنا عن النقباء.

وخطبة بن عامر بن حديدة، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله واستشهد فى معركة صفين ويقال إنه مات في آخر خلافة عثمان.

وعقبة بن عامر بن نابى شهد بدرًا وأحدًا والخندق وسائر المشاهد واستشهد فى حروب الردة مجاهدًا فى سبيل الإسلام.

وجابر بن عبد الله بن رئاب، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله. وروي المحدثون عنه أحاديث كثيرة. ومن الرواة من يسقطه من الستة الأول ويجعل مكانه عبادة بن الصامت ويستوقف نظرنا أن أولئك الستة سيكونون من السبعين من أهل المدينة الذين سيدخلون الإسلام بعد قليل، وسيكون الكثيرون منهم نقباء،

وكلهم دون استثناء سيثبتون على الإسلام دون أدنى تردد. ومعظمهم كما رأيت سيستشهدون فى سبيل الإسلام.

فكأن إسلامهم – الذى يبدو لنا وكأنه كان مصادفة. كان قدراً أراده الله سبحانه وتعالى لهم بسعادة الدنيا والآخرة أولا ثم بالخلود فى صفحات التاريخ ثانيا.

وهذا يكشف لك عن حقيقة ستتجلي لنا في كل مناسبة من مناسبات حياة رسول الله محمد ﷺ : وهى أن الله سبحانه وتعالى رزقه من بهاء الطلعة وسماحة الوجة ورزانة الكلام وجمال الثياب مع بساطتها ما كان يهز قلوب محدثيه ويوقع فى قلوبهم من الإيمان به والاحترام لكل مايبدو لهم منه ما يجعلهم أسرى محبته وتصديقه والإيمان به منذ الوهلة الأولى وبالفعل فقد كانت لرسول الله طلعة بهية وصورة جميلة رهيبة غامرة، فقد كان أقرب إلى الطول منه إلى القصر، وكان ربعة القوام لا هو بالسمين أو النحيف. وكانت ملامحه بالغة الوسامة والاتساق . وكانت فى عينيه ملاحة هى أقرب إلى السحر وكان أبيض أميل إلى السمرة، وقد رزقه الله وفرة فى الشعر فكان دائم الغسل له وكان يطيله ويحسن تصفيفه ويرسله خلف أذنيه. وكان بسيطًا جداً فى ثيابه ولكنه كان يغسل ثوبه بيده مرة أو مرتين فى اليوم. وكان يجد فى ذلك متعة ومثالاً يضربه لمن حوله. ومع ذلك فلم يكن يتكلف التقشف فى ثوب أو طعام، وإنما كان رجلاً سهلاً بسيطًا يأخذ الحياة المادية كما هى. والذين يقولون لك إنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زهداً فيه مخطئون، فما كان رسول الله يتقشف فى الطعام. إنما هو كان يأكل ما حضر. فاذا وجد لحما أكل اللحم وإذا لم يجد إلا الزيت والخل أكل الزيت والخل عن رضا وطيب نفس. وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أنه لم يشته فى يوم طعاماً أو يطلب ما هو غير موجود.

وكان رسول الله ﷺ يحس بنعمة الله تعالى فيما أحسن به إليه من هذا،

فكان يزيده فيتعطر، وحبب إليه الطيب ، وكان يخضب شعره بالكتم. وهو صباغ أسود عطر.

ثم تجىء بعد ذلك العقبة الثانية. وهنا يقع المؤرخون القدامى فى خلط بالغ، فهم يجعلونها ثلاث بيعات، والبيعة الثانية عندهم كان فيها الاثنا عشر النقباء. (منهم بعض من حضر العقبة الأولى) ولا محل هنا لهذه العقبة فيما نرى. وهولاء الاثنا عشر كان اختيارهم أثناء العقبة الثانية وهم بعد الستة الأول الذين ذكرناهم:

البراء بن معرور

عبادة بن الصامت بن قيس

أبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة

أبو الهيثم مالك بن التيهان

عويم بن ساعدة

أسيد بن الحضير

وفى هذه الأسماء بعض الخلاف لأن الناس - كما ذكرنا - تسابقوا على أن يكون ذووهم بين السابقين الأولين فى الإسلام، ولابد أن تذكر أن هؤلاء الاثنى عشر كانوا من بين السبعين الذين حضروا البيعة الثانية فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، واتفقوا معه على أن ينتقل إليهم هو وأصحابه، على أن يحموهم داخل بلدهم كما يحمون أهلهم وأفراد أسرهم. وهذه هى المسماة ببيعة النساء، أى بيعة مسالمة لا تلزم الحرب أصحابها.

وبالإضافة إلى هؤلاء السبعين رجلاً كانت هناك امرأتان،هما أم عمارة نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدى وكلتاهما من البطلات المجاهدات فى سبيل الإسلام كما سترى.

وقبل أن نعرض للستة الباقين من الاثنى عشر بالتفصيل نريد أن نناقش قضية يبدو لى أنها مهمة.

وهذه القضية هي حضور العباس بن عبد المطلب هذه البيعة والدور العظيم الذى ينسبه إليه المؤرخون فيها.

ونحن نشك فى هذا الخبر من بدايته إلى نهايته ونرى أن دعاة بنى العباس دسوه فى السيرة كما دسوا أخباراً أخرى ليرفعوا من مكانة العباس ويزيدوا من قدره فى سيرة الرسول ﷺ لدعوى بنى العباس استحقاقهم الخلافة وأفضليتهم على غيرهم.

ذلك أن العباس بن عبد المطلب كان إذ ذاك - وإلى فتح مكة - من عتاة الكفار وكبار المرابين، وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك ويصارح العباس وبقية الناس به، بل لم يؤثر عن رسول الله ﷺ أى خبر يدل على تقدير خاص للعباس قبل إسلامه فى وقت واحد مع أبى سفيان بن حرب فى خبر فتح مكة.

ولو كان العباس على هذه الدرجة من الحرص على سلامة الرسول فى ذلك الحين فأين كان عندما حوصر بنو هاشم فى شعب أبى طالب وقوطعوا حتى هلك أطفالهم جوعًا؟ لماذا لم يتدخل ولو بأيسر اليسير لمعاونة محمد ﷺ وبنى هاشم فى هذه المحنة؟

لقد كان الثلاثة الذين مشوا فى نقض الصحيفة بشهادة محمد بن اسحاق وموسى بن عقبة معاً هم: هشام بن عمرو بن الحارث (من بنى عامر بن لؤى) وأبو البخترى العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى والمطعم بن عدى الذى ذكرناه.

وكان تدخلهم من باب الإنسانية والشهامة فقد عز عليهم أن يهلك هذا النفر من قريش بظلم قريش التى أرادت أن تهلك محمداً وآل محمد، وكان الساعي فى ذلك هشام بن عمرو بن الحارث لأنه كاتب الصحيفة.

والخبر كما يرويه أبو عمر يوسف بن عبد البر عن موسى بن عقبة: «كان الذين مشوا في نقض الصحيفة هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك

ابن حسْل بن عامر بن لؤي، لقي زهير بن أمية بن المغيرة المخزومى، فعيره بإسلام أخواله، وكانت أم زهير عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة. ثم مضى هشام إلى المطعم بن عدى بن نوفل. فذكره أرحام بنى هاشم وبنى عبد المطلب بن عبد مناف. فأجابه المطعم إلى نقضها ثم مضى إلى أبي البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فذكر له ذلك. فأجابه، ثم مضى إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد. فذكره ذلك فأجابه، فقام هؤلاء فى نقض الصحيفة» (١) وفى هشام هذا يقول الدكتور شوقى ضيف: واضح من سياق هذا النص أن هشامًا كان له بلاءً حسن فى نقض هذه الصحيفة، وكان ذا شرف فى قريش. ويقال إنه كان أوصلهم لبنى هاشم حين حوصروا فى الشعب، وكان يأتى بالبعير ليلاً وقد أوقره طعامًا إلى فم الشعب فيخلع من رأسه خطامه ويضربه على جنبه فيدخل الشعب عليهم وعبثًا حاولت قريش أن ترده عن صنيعه.

فأين كان العباس بن عبد المطلب عندما كان بنو هاشم والمطلب على وشك الهلاك؟.

وما الذي يدفعه الآن إلى التحرك والمسير مع محمد للقاء الأنصار وكل من سيلقاهم الرسول فى هذه البيعة الثانية كانوا أوثق إيمانًا وأحرص على سلامة رسول الله ﷺ من العباس؟.

ثم ما هذه البسالة والشهامة التى بدت منه فجأة فى هذه المناسبة؟.

وهذا الاجتماع فيما نعلم كان سرًا بين الرسول والأنصار فما الذى يجعل رسول الله ﷺ يفضى هذا السر إلى العباس بالذات وهو لم يكن مسلمًا.

ومن العجيب أن هذا الرجل الذي دخل الإسلام عشية دخول الرسول مكة، وفى نفس الوقت الذى دخله فيه أبو سفيان يقف دليلاً لأبى سفيان. وكلما مرت فرقة من فرق جيش الإسلام قال: هؤلاء بنو فلان! هؤلاء بنو علان! فمن أدراه والله

---

(١) الدرر لابن عبد البر بتحقيق د. شوقى ضيف ص ٥٦ - ٥٧ .

بهذا كله؟ ولم يكن إسلام العباس أعمق من إسلام أبى سفيان صخر بن حرب، ولكن دارس السيرة يرى أن أبا سفيان – رغم إيمانه القليل – أدى للإسلام خدمة كبرى، فقد تفاهم – ضمنًا – مع الرسول عند ذهابه إلى المدينة بعد أن نقضت قريش عهدها فى صلح الحديبية وأيدت بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عدوانهم على خزاعة أحلاف الرسول ﷺ وكان رسول الله ﷺ يرى هذا ويريد أن تكون مكة مدينة مفتوحة فيدخلها المسلمون دون قتال، لأنه كان حريصًا علي مكة وقريش، فمكة بلد الله الحرام وقريش هم قوم رسول الله ﷺ وهو يرجو أن يسلموا ويكون منهم خير كثير إلي الإسلام.

وأبو سفيان قدم للإسلام هذه الخدمة والعباس لم يؤد إلى الإسلام أى خدمة تذكر، فما الذى يجعله الآن يحس بالشهامة والنخوة ويسارع إلى ضمان سلامته؟.

هذه كلها أخبار دست على الإسلام فى العصر العباسى لتعظيم مكانته فى السيرة وتأييد ما كان يدعيه أحفاده من حق فى خلافة المسلمين.

بل إننا نجد أن ما نستطيع أن نسميه «وكالة الأنباء العباسية» تبالغ فى تضخيم حجم العباس فى عصر الرسول ﷺ لتجعله أكبر من الرسول ﷺ نفسه. وكلنا نعرف خبر ابتكار الرسول ﷺ لفكرة وضع الحجر الأسود على ثوبه ثم قيام رجال من القبائل كلها برفع الثوب، لأنهم كانوا مختلفين متنازعين فى ذلك.

وهنا، وفي هذا الخبر الذى يدل على ذكاء الرسول ﷺ وعدله وإنصافه، نجد «وكالة الأنباء العباسية» تقول إن رجال القبائل عندما رفعوا الثوب وعليه الحجر الأسود يتقدم العباس ويرفع بيديه الحجر ويضعه فى مكانه فيكون قسيم الرسول فى هذا الشرف، بل أعظم منه – حاشا لله – فهو الذى يضع الحجر الأسود فى مكانه!.

وهذه كلها زيادات وإضافات وضعت لأغراض سياسية.

ومثلها – في مناسبتنا هذه ما يقال في كتب السيرة من أن الله سبحانه وتعالى أرسل أرَضة فأكلت صحيفة حصر بني هاشم الظالمة كلها إلا «باسمك اللهم»[1] وهذا مقبول. ولكن الذى لا نقبله هو أن رسول الله يعلم هذا الخبر فيبلغه لأبى طالب الذى كان كافرا وظل كافرا إلى مماته.

«قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضَةَ على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلم إلى صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي. فقال القوم رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً»[2] ..

وهذا خبر بالغ الكذب عندنا، فإذا كان أبو طالب قد رأى هذا البرهان العظيم على صدق رسول الله فلماذا لم يؤمن حينئذ؟ هذا خبر مدسوس ولا شك، وقد دسه أحفاد أبى طالب كما دس أحفاد العباس ما رأينا من أخباره.

* * *

وكل هؤلاء الصحابة من الأنصار الذين ذكرناهم كانوا أبطالاً جاهدوا فى سبيل الإسلام وإن لم يشتهر أمرهم عندنا، ومعظمهم استشهدوا فى سبيله، ولكن الظاهرة التى تستوقف الانتباه فى سيرهم أن الإسلام بدل حياتهم تبديلاً، فكأنهم خلقوا معه خلقًا جديداً، ومن أمثلة ذلك أن عبيدة بن الصامت بن قيس بن أصرم من بنى عمرو بن عوف من الخزرج اختاره القواقل نقيبا لهم بعد إسلامه فى

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٧٦

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٧ .

العقبة الأولى وبيعته فى العقبة الثانية، وكانت بيعة الإسلام لا التزام بقتال فيها، ولكن هذا الرجل حضر كل المشاهد مع رسول الله وأحسن الجهاد، واستعمله رسول الله ﷺ على بعض الصدقات وحذره من جمع المال أو استغلال الصدقات التى يجمعها، فأقسم أنه لن يأخذ إلا نصيبه من الصدقات، وهو نصيب العاملين عليها وهو قليل جداً، وإنه لن يكون صاحب بعير أو بقرة أو شاة كبيرة ومات رحمه الله لا يملك شيئًا بعد هذا الجهاد فى سبيل الإسلام.

وبهذه المناسبة نذكر أن رسول الله ﷺ أرسل المصدقين بعد الفراغ من فتح مكة وعودته ﷺ إلى الجعرانة، لم يبعثهم عمالاً على الناس أو الجهات بل مجرد مراقبين على إخراج الصدقات.

وبعض المؤرخين – مثل خليفة بن خياط – يسميهم عمال رسول الله ﷺ وهو فى هذا يسىء الفهم والتفسير، فإن رسول الله ﷺ لم يكن حاكمًا لأمة الإسلام، ولم يتصرف قط تصرف حاكم مع أنه كان يستطيع، ولكنه كان يرى أمة الإسلام أمة لا دولة، وكان يرى نفسه كما وصفه الله سبحانه وتعالى: شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وبهذه الصفات التى لا تحمل شبهة من السلطة جعلت له على الناس من السلطان ما لم يصل إليه أكبر السلاطين، لأنه كان يربى الناس بالقدوة، فيضرب لهم المثل بخلقه وتصرفه ويرون فيه مثلاً أعلى وتسعد نفوسهم بطاعته والسير فى طريقه، وكانت هذه – فى نظرى – غايته الكبرى، وهى أن يستيقظ ضمير الناس ويشعروا بأنفسهم بالواجب عليهم نحو أنفسهم ونحو إخوانهم، ويصفو فيهم الإحساس بالعدل – وهو غاية الإسلام العليا – فيحكم الناس أنفسهم بأنفسهم ولا يعودون فى حاجة إلى حكومة أو دولة، وكل أمورهم تدبرها الأمة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهى هيئة الشورى والتنفيذ.

ولدوا يوم أسلموا
وعاشوا للإسلام وماتوا فى سبيله

لم يكن من حق الأمة - أو الدولة إذا شئت - أن تأخذ الزكاة أو الصدقات من الناس، وتتصرف فيها ولو لصالح الجماعة، لأن الزكاة ليست ضريبة، وإنما هى صدقة يخرجها المسلم من ماله ليصفو المال ويطهر، والله سبحانه وتعالى لم يقل إننا ندفع الزكاة أو نؤديها، إنما نؤتيها أى نخرجها من مالنا من تلقاء أنفسنا دليلاً على شعورنا بأننا أعضاء أمة الإسلام، وهى أمة الخير، ومصارف الزكاة أو الصدقات نفسها تدل على أنها مال خير يخرجه المسلم طواعية من ماله، ويصرفه فى وجوه الخير ما عدا جزءًا قليلاً، وهو ما ينفق منها فى سبيل الله: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ٥٩ - ٦٠] والمصدقون أو عمال الصدقة إذن ليسوا حكامًا للناس أو عمالاً على النواحى، وإنما هم مجرد مشيرين على الناس فى طريقة إيتاء الزكاة.

ونعود إلى النقباء الاثنى عشر من الأنصار.

ونضيف هنا أنه لا ينبغى أن يكون النقباء الاثنا عشر كلهم من أهل البيعة الثانية، لأن بعضهم أسلم فى المدينة على يد مصعب بن عمير، وقد يكون خرج للبيعة الثانية وقد لا يكون مثل «أسيد بن الحضير» وكان من أعاظم النقباء، وموسى ابن عقبة لا يجعله فى أهل البيعة الثانية، وابن اسحاق يجعله، وأنا أعتبر محمد ابن اسحاق بن يسار وموسى ابن عقبة أكبر مراجعنا عن السيرة الشريفة فيما يتعلق بالأعمال، أما فيما يتعلق بالأقوال فهناك الصحاح والمسانيد وكتب الآثار.

ومن الذين ذكرهم أبو عمر بن عبد البر فى أهل العقبة الثانية عويم بن ساعدة من بنى عمرو بن عوف، ولم يكن من الأوس أو الخزرج، بل كان حليفًا للآخرين،

وأصله من بَلِيٍّ من قضاعة، ومعنى ذلك هوأن النقباء لم يكونوا جميعًا من الأوس والخزرج. لأن أهل المدينة لم يكونوا جميعًا من هاتين القبيلتين، بل كان فى المدينة عدد كبير من الجهنيين والبلويين وبنى بكر بن عبد مناة وغيرهم، وكانوا حلفاء الأوس والخزرج أو أولياءهم، وكان لهم مكان كبير فى المدينة، ومثالهم عويم بن ساعدة هذا الذى كان حليفًا لبنى عمرو بن عوف، ولكنه كان بلويًا من قضاعة وسنرى أن رسول الله ﷺ كان دائمًا عظيم الاهتمام بهؤلاء الحلفاء، وكان لهم فى تاريخ الإسلام دور عظيم.

ثم ننتقل إلى أسيد بن الحضير، فنقرأ فى «الاستيعاب» لأبى عمر بن عبد البر: وذكر البخارى عن عبد العزيز الأويسى عن إبراهيم بن سعد عن ابن اسحاق عن يحى بن عباد عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بنى عبد الأشهل: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر[1] وهذا حق فقد كان هؤلاء الثلاثة فى أرفع قمة من قمم الأنصار، وسنتحدث عنهم الآن، ولكن يكفى أن نقول أن سعد بن معاذ استشهد فى الخندق، وهو ولم يمت إلا بعد أن أصدر الحكم المشهور على بنى قريظة، وأسيد بن الحضير كان مثلاً أعلى للمسلم المخلص الباسل الذى لا ينظر إلى كسب أو ميزة شخصية، وعباد بن بشر هو الذى نصح الأنصار يوم السقيفة بترك منافسة المهاجرين فى مسألة الخلافة أو الميراث السياسى للرسول، وفي رأينا أن سلطان الرسول لم يكن سلطانًا سياسيًا وإنما كان روحيًا وأخلاقيًا إسلاميًا، وأن أمور أمة الإسلام كانت تسير سيرًا طيبًا جدًا على هذه الصورة، فقد كان يعتمد الرسول أساساً على الإسلام ثم على الشورى، فلما انفرد المهاجرون بالخلافة وتولى الخلافة أبو بكر ثم عمر، سار الأمر سيرًا طيبًا فى أيامهما، لأنهما كانا قد وعيا درس الإسلام عن رسول الله ﷺ وعيًا عميقاً

(١) الاستيعاب [١ / ٩٤].

شاملاً، وكانت لديهما القوة البدنية اللازمة للقيام بأمر الأمة، فلما جاء عثمان لم يكن له من القوة البدنية بسبب علو سنه ما للصاحبين فاضطربت الأمور فى يديه، وكانت الفتنة، وقد قال الحباب بن المنذر يوم السقيفة: منا وزير ومنكم وزير، ولو طبقوا هذا لكان أفضل، فإن اشتراك المهاجرين والأنصار فى الرياسة معناه الشورى، وهى خير ألف مرة من الحكم الفردى الذي لابد مهما صلح فى بدايته – أن يؤدى إلى الاستبداد والملكية الوراثية.

وأسيد بن الحضير من بنى عبد الأشهل من الأوس، وهم أهل راتج، إحدى واحات سهل المدينة قبل الإسلام، وكانت تقع فى الشمال الشرقى من السهل. وكان بنوعبد الأشهل قبيلة مركبة أى مختلطة الأصل أو ثنائيه النواة، فإن النسابة يقولون إن عبد الأشهل هو ابن جشم بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة، وكان لعبد الأشهل ابن أخ يسمى زعوراء بن جشم، والدلائل كلها تدل على أن زعوراء ليسوا من أصل عربى، وربما كانوا عبرانيين استعربوا وانضموا إلى الأوس وانتسبوا إلى جشم بن الخزرج بن عمرو، وقد كانوا فريقًا من الشجعان بلغوا من البسالة أقصاها، فهم الذين كسبوا نصر بغاث على الخزرج وألجأوهم إلى الذهاب إلى مكة ليطلبوا حلف قريش.. بعد الإسلام تجلى زعوراء عن أسود مجاهدة فى سبيل الإسلام، ومعظمهم استشهدوا فى سبيله، واقرأ هذه الفقرة فى جمهرة الأنساب لابن حزم: «منهم مالك والحارث وعمير وإياس وأوس وبنو أوس ابن عتيك بن عمرة بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء ابن جشم. قتل مالك وعمير يوم اليمامة، وقتل أوس والحارث يوم أحد، وقُتل إياس يوم الخندق شهداء رضى الله عنهم، وابن عمهم أبو الهيثم مالك بن التيهان بن عتيك بن عمرو بدرى عقبى نقيب (الأصح هنا أن نقول: عقبى نقيب بدرى) وأخوه عتيك بن التيهان، بدرى من شهداء أحد وأخوه عبيد بن التيهان «فهذا بيت وأحد فى زعوراء استشهد منه خمسة على الأقـــل. والأغلب أن الأوس كلهم كانــوا فى الأصـــل من الخزرج، وإن الانفصـــال أو الانقـسام بدأ من جشـــم بن الخزرج، وهذا مبحث طويل

يدعونا إلى إعادة النظـــر فى كل شـــجرات أنساب الأوس والخـزرج التــى بين يدينا.

وكان أسيد بن الحضير فى الذروة من الإيمان والشجاعة والإيثار، قال فيه ابن عبد البر: «كان أسيد بن حضير أحد العقلاء الكملة من أهل الرأى، وآخى رسول الله بينه وبين زيد بن حارثة، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، وحديثه فى استماع الملائكة قراءته حين نفرت فرسه حديث صحيح جاء عن طريق صحاح من نقل أهل الحجاز والعراق.

ومن أمثلة زهده في الأشياء المادية واستحيائه من طلبها أنه كان عند رسول الله ﷺ ذات مرة وجاء عامر بن الطفيل وزيد إلى رسول الله ﷺ فسألاه أن يجعل لهما نصيبًا من تمر المدينة فأخذ أسيد بن الحضير الرمح فجعل يقرع رؤوسهما ويقول: اخرجا أيها الهجرسان، فقال عامر: من أنت؟، فقال: أنا أسيد ابن الحضير، قال: حضير الكتائب؟، قال: نعم، قال: كان أبوك خيرًا منك، قال: بل أنا خير منك ومن أبى. مات أبى وهو كافر، فقلت للأصمعى: ما الهجرسان؟، قال: الثعلبان[1] .

وقد أسلم أسيد بن الحضير فى المدينة على يد مصعب بن عمير، وكان إسلامه قبل سعد بن معاذ بساعة. ثم جاء مع مصعب بن عمير مع السبعين أهل العقبة الثانية، وقد اختاره أهل قبيلته نقيبًا عنهم. ولم يحضر أسيد بدرًا فقد حسب – مثله فى ذلك مثل كثير من كبار الأنصار – أن رسول الله يقصد العير أى القافلة وأنه لا يلقى حربًا ولم تكن بهم حاجة إلى شيء من غنائم العير.

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة لقيه أسيد وقال: الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينـك! والله يا رسـول الله ما كـان تخلفي عن بدر وأنا أظـن أنك تلقى عدوًا

(١) الاستيعاب [١٠ / ٩٣ – ٩٤]

ولكن ظننت أنها العير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ صدقت! ويستمر ابن سعد فى حديثه عن أسيد بن الحضير يقول: قال محمد بن عمرو: شهد أسيد أحداً وجرح يومئذ سبع جراحات.

وثبت مع رسول الله ﷺ عندما انكشف الناس وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من علية أصحابه. وروى أبو هريرة بسند طويل أن رسول الله ﷺ قال: نعم الرجل أسيد بن حضير[1] .

وقد كان أسيد من الأنصار الذين رأوا التخلى عن الخلافة للمهاجرين، ويرى بعض المؤرخين أن ذلك كان خوفًا من الخزرج، وما أظن ذلك صحيحًا فإن الرجل كان أعلى نفسًا من أن تتأثر آراؤه بهذه الاعتبارات.

وقد توفى أسيد بن حضير سنة ٢٠هـ /٦٤١ فى خلافة عمر، فحمله عمر من منازل بنى عبد الأشهل براتج، ودفنه فى بقيع الغرقد، وهو مدفن أهل المدينة، وعند وفاته تبين أن عليه ديونًا قدرها أربعة آلاف درهم وكان دائنوه يريدون بيع نخله، ولكن عمر استمهلهم واتفق معهم على يأخذوا كل سنة ألف درهم من ريع نخله فوافقوا. وهكذا نرى أن هذا الرجل الذى كان يستطيع أن يكسب الألوف من مغانم الفتوح توفى وهو مدين.

* * *

أما سعد بن معاذ وهو الثانى من الثلاثة الذين ذكرتهم عائشة رضى الله عنها فهو سعد بن معاذ الذى أسلم على يدى ابن عمير بعد أسيد بن حضير بساعة، وكان من عبد الأشهل أيضًا، وكان مصعب بن عمير حين وفد على المدينة ليدعو إلى الإسلام بأمر رسول الله ﷺ قد نزل فى دار سعد بن معاذ،فأسلم كل بنى عبد الأشهل جميعًا، رجالاً ونساء فكان بنو عبد الأشهل أول قوم من أهل المدينة

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٣٧١٣ .

أسلموا جميعًا وانضم إليهم أسعد بن زرارة فكان الثلاثة يدعون هناك للإسلام وكانوا يكسرون أصنام بنى عبد الأشهل حتى أسلموا وكان أسعد بن زرارة عقبيًا نقيبًا وقد توفى بعد ستة شهور من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فلم تتح له الفرصة ليكون بدريًا . أصابته الذبحة.

وإن الإنسان ليتعجب من أمر أولئك الأنصار الذين يخيل إليك أنهم كانوا على موعد مع الإسلام فقد ظلوا تاريخهم كله وثنيين متعادين متحاربين خائفين من اليهود، لا يكادون يشتهرون بمقدرة عسكرية أو باتجاه روحى، حتى إذا التقوا مع الإسلام تغير كل ما فيهم من النقيض إلى النقيض، فأسلم منهم أول الأمر واحد، ثم نفر يزيدون قليلاً عن العشرة، ثم سبعون وامرأتان، ولا يكاد مصعب بن عمير يصل إلى المدينة ليدعو للإسلام حتى يدخلوا فيه زرافات ووحدانا. إنهم كانوا ينتظرونه ويتحولون إلى أسود حرب لا يثبت لهم فى جزيرة العرب أحد. ويظهر من بينهم قادة وأهل معارك يرسمون الخطط فلا تثبت لهم قبيلة أو جماعة فى جزيرة العرب. فإذا لم يكن هذا قدرًا سعيدًا كتبه الله لهؤلاء الناس فماذا يكون؟.

وكان أسعد بن زرارة رجلاً طويلاً عظيم الهيئة وكان رأس النقباء ولكن الذبحة أو الشوكة أصابته فمات منها.

وثالث الثلاثة الذين قالت عائشة رضى الله عنها إنهم خير الأنصار، هو عباد ابن بشر، وكان أيضًا من بنى زعوراء من الأوس، وقد أسلم قبل أسعد بن زرارة ومسعد بن معاذ، وكان من يوم أسلم إلى أن مات فى مقدمة المسلمين جميعًا شهامة وبسالة وإخلاصًا. وقد ذكرنا أنه كان فى مقدمة الأنصار الذين نصحوا بالتخلى عن السياسة والخلافة للمهاجرين.

واقرأ خبر استشهاد هذا الرجل فى موقعة اليمامة لترى أى مخلص للإسلام كان، قال ابن سعد روايًا عن شيخه الواقدى حدثنى سعيد بن محمد.. قال: سمعت عباد بن بشر يقول: يا أبا سعيد رأيت الليلة كأن السماء قد فرجت لى ثم

أطبقت على فهى إن شاء الله الشهادة، قلت: خيراً والله رأيت. قال: فانظر إليه يوم اليمامة وإنه ليصيح بالأنصار: أحطموا جفون السيوف وتميزوا عن الناس، وجعل يقول: أخلصونا! أخلصونا! أخلصونا!، أربعمائة رجل من الأنصار وما يخالطهم أحد يقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك حتى انتهوا إلى باب الحديقة (حديقة الموت، وكان مسيلمة متحصنًا فيها) فقاتلوا أشد القتال، وقتل عباد بن بشر رحمه الله، فرأيت بوجهه ضربًا كثيراً ما عرفته إلا بعلامة كانت فى جسده (١) .

وكانت الغالبية العظمى من الأنصار على هذا المستوى من الإيمان والإخلاص للإسلام. وتعبر عن ذلك بأجلى بيان العبارة التى قالها بشير بن سعد يوم السقيفة عندما رأى اختلاف المهاجرين والأنصار فى خلافة رسول ﷺ يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين، وسابقة فى هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغى به فى الدنيا عرضاً، فأن الله ولى المنة علينا بذلك، ألا أن محمداً ﷺ من قريش، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم الأمر أبداً. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم(٢) .

* * *

وإذا أنت أردت مثالاً لرجل يبدو لك كأنه خلق يوم أسلم خلقًا جديداً، وعاش للإسلام عمره كله، فخذ أبا دجانة، واسمه سماك بن فرشة بن لوذان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة. فهو خزرجى ونحن لم نسمع به قبل الإسلام، فلما أسلم أصبح إنسانًا جديداً، وبدت منه شجاعة في القتال جعلت منه بطلاً من أبطال الإسلام، وظل بطلاً إلى يوم مماته.

---

(١) طبقات ابن سعد [٣ / ١٧ القسم الثانى]

(٢) تاريخ الطبرى [٣ / ٢٢١] .

وكان أبو دجانة سماك بن فرشة رجلاً طاهر القلب سليم دواعي الصدر، لا يكاد يفكر فى نفسه. وكانت أمه من بنى سليم بن منصور من قيس عيلان، وآخى رسول الله بينه وبين عتبه بن غزوان وهو قرشى، وكان بطلاً مثل صاحبه أبى دجانة.

وكان أبو دجانة يعلّم فى ميادين القتال بعصابة حمراء يلفها حول رأسه فلا يكاد يثبت له أحد، وكان رسول الله ﷺ يستظرفها ويقول إن الله لا يحبها إلا فى مثل هذه المواقف. وبهذه العصابة حضر أبو دجانة معركة بدر، وكان من أبطالها، ولما حضر معركة أحد كان من القلة التى ثبتت مع رسول الله عندما انكشف عنه الناس، وبايعه على الموت.

وقد روى أن رسول الله مد يده بسيفه يوم أحد وقال: من يأخذ هذا السيف؟ فتدافع الناس وكل منهم يقول: أنا!!، ثم قال رسول الله ﷺ من يأخذ هذا السيف بحقه، وهو القتال به فى سبيل الله حتى الموت؟ فأحجم الجميع إلا أبو دجانة، فقد قال: أنا آخذه بحقه «فأخذه ففلق به هام المشركين»(١) .

وروى زيد بن أسلم بسنده أن أبا دجانة حين أعطاه النبى ﷺ سيفه يوم أحد على أن يعطيه حقه ارتجز يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى ... بالشعب ذى السفح لدى النخيل

ألا أكون آخر الأفول ... أضرب بسيف الله والرسول

وكان رسول الله يعجب بأبى دجانة ويقرنه فى الشجاعة بكبار الهجانة من أمثال علي بن أبى طالب. فقد روى أنهم لما انصرفوا من أحد قال علي بن أبى طالب كرم الله وجهه لفاطمة: خذى السيف غير ذميم، وقد قالها فخرًا بسيفه، فقد كان يقاتل ببسالة عظيمة فى ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ : إن كنت أحسنت

---

(١) طبقات ابن سعد [٣ / ١٠٢ القسم الثانى].

فقد أحسنه الحارث بن الصمة وأبو دجانة. فنوه ﷺ بأبى دجانة، وقرنه بعلى بن أبى طالب.

ومن أجمل أخبار أبى دجانة الخبر التالى الذى يرويه ابن سعد: دُخل على أبى دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ قال: ما من شيء أوثق عندى من اثنتين: أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنينى، وأما الثانية فكان قلبى للمسلمين سليماً »[١] .

وكان أبو دجانة فى جملة أبطال الأنصار الذين حسموا المعركة مع مسيلمة الكذاب يوم اقتحموا عليه حديقة الموت وقتلوه، وقد استشهد معظمهم فى ذلك اليوم وفى جملتهم أبو دجانة سنة اثنتى عشرة هجرية فى خلافة أبى بكر.

* * *

(١) طبقات ابن سعد [٣ / ١٠٣ القسم الثانى].

وأخرج الإسلام منهم
أبطال حروب

قبل الإسلام لم يكن للأوس والخزرج تاريخ عسكرى، أى أنه لم يكن لهما حروب ووقائع كما نرى فى بكر وتغلب وطيء وعبس وغطفان، وإنما كانت حروبهما داخلية، داخل المدينة بين بعضهما البعض، وإذا صدق ما أظنه من أن الأوس والخزرج كانتا فى الأصل قبيلة واحدة هى الخزرج، ثم انفصلت الأوس عنها وانضمت إليها زعوراء فأصبحت تستطيع منافسة الخزرج والوقوف فى وجهها، ففى هذه الحالة تكون حروب الأوس والخزرج قبل الإسلام نتائج هذا الانفصال، وتكون موقعة بعاث آخر هذه الوقائع.

وقد خافت الخزرج من انتصار الأوس عليها فى هذه الواقعة. وأسرعت إلى مكة تطلب عون قريش. ولحق بها رجال من الأوس ليروا ماذا يحدث فى مكة، فكان لقاؤهما مع رسول الله ﷺ ، وكان الصلح بينهما فى ظل الإسلام.

وقد أيقظ الإسلام كل ملكات الأنصار فظهر فيهم الرجال الممتازون فى كل مطلب من مطالب الحياة. فظهر رجال علم وإدارة ودين وحرب، وإلى جانب البسالة والاستعداد لبذل النفس فى سبيل الإسلام - وهي خصلة امتاز بها كل الأنصار - فقد ظهر فيهم مخططون عسكريون أى ناس يرسمون خطط المعارك ويتصورون سبل النصر فيها، ومن هؤلاء الحباب بن المنذر ولابد أنك قرأت عنه وعما فعل فى موقعة بدر، وأزيدك هنا عنه بيانًا .

فالحباب بن المنذر سُلَمى (بضم السين وفتح اللام) أى من بنى سلمة الأنصاريين الخزرجيين، وجده المنذر بن الجموح من كبار بطون الخزرج، وفى معركة بدر كان رسول الله ﷺ عندما نزل مع المسلمين عند الحافة الشمالية الغربية لسهل بدر نظر فى السهل فرأى قرب وسطه تلاً يسمى الظرب وإلى جانبه

عيون ماء بدر، ورأى بعض غلمان القرشيين يملأون الآنية، فانتظر حتى إذا كانت الشمس على وشك الغروب أرسل نفرًا من المسلمين فطردوا غلمان القرشيين واستولوا على عيون الماء. ولما كانت الشمس قد غربت فإن المهاجرين لم يستطيعوا فعل شيء، وعمل الرسول هذا حسم معركة بدر منذ البداية، واقرأ ما يقوله فى ذلك الواقدى فى كتاب المغازى: «فاندفعوا - أى المسلمين - تلقاء الظريب فيجدون على تلك القليب (البئر) التى قال رسول الله ﷺ روايا قريش فيها سقَّاؤهم، ولقى بعضهم بعضًا وأفلت عامتهم، وكان ممن عرف أنه أفلت عجير، وكان أول من جاء قريشًا بخبر رسول الله ﷺ فنادى فقال: يا آل غالب هذا ابن أبى كبشة وأصحابه قد أخذوا سقَّاءكم! فماج العسكر وكرهوا ما جاء به، قال حكيم بن حزام - وهو ابن أخى السيدة خديجة أم المومنين رضى الله عنها، من بنى عبد العزى بن قصى - وكنا فى خباء لنا على جزور نشوى من لحمها، فما هو إلا أن سمعنا الخبر، فامتنع الطعام منا، ولقى بعضنا بعضًا، ولقينى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا خالد، ما أعلم أحدًا يسير أعجب من مسيرنا إن عيرنا قد نجت وإنا جئنا إلى قوم فى بلادهم بغيًا عليهم. فقال عتبة: لأمر حُمَّ ولا رأى لمن لا يطاع، هذا شؤم ابن الحنظلية (أبو جهل)! يا أبا خالد أتخاف أن يبيتنا القوم؟ قلت: لا آمن ذلك. قال: فما الرأى يا أبا خالد؟ قال: نتحارس حتى نصبح وترون من وراءكم (وفى نسخة: وترون رأيكم) قال عتبة: هذا الرأي! قال: فتحارسنا حتى أصبحنا»(١) .

وهنا يجيء دور الحباب بن المنذر فى إكمال عمل رسول الله ﷺ فإن رسول الله أراد أن يصف الناس إلى جوار الماء، فسأله الحباب إن كان هذا منزلاً أنزله الله أم هو الرأى والحرب والمكيدة. فلما قال الرسول ﷺ إنه الرأى والحرب والمكيدة. قال الحباب: فإن هذا ليس بمنزل. انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم. فإنى

---

(١) المغازى للواقدى [١ / ٥١ - ٥٢].

اعلم بها وبقلبها، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه وماء كثيرة لا ينزح. ثم نبنى عليه حوضًا ونقذف فيه الآنية فنشرب ونقاتل ونغور ما سواها من القلب[1].

ومعنى ذلك أن الحباب رأى أن يتقدم المسلمون أمام القُلُبِ (بضم القاف واللام أى الآبار) ويكونون بين الماء والكفار، ثم يحفرون حوضًا يملأونه بالماء ويلقون فيه الآنية فيشربون ولا يشرب القوم وكان اليون قائظًا ثم إن الكفار ناموا كما رأينا نومًا سيئًا فى حين نام المسلمون مطمئنين ثم إن السماء أمطرت مطرًا ثقيلاً عند الكفار وخفيفًا عند المسلمين فتلبدت الأرض هناك وتماسكت هنا.

وفعل المسلمون كما أشار الحباب ونشأ الحوض الذي سيحاول الكفار الاقتراب منه مرة بعد أخرى ليشربوا فيمنعهم المسلمون، وإن كان رسول الله ﷺ قد أشار بترك من يريد الشرب يرد الماء.

وقبل نشوب القتال خطب رسول الله ﷺ فى المسلمين خطبة عظيمة، ولرسول الله في كل موقعة كبرى من مغازيه خطبة بديعة فعلاً حتى خطر ببالى أن أجمعها فى دراسة، وإليك خطبة بدر أوردها لك لترى مستوى هذه الخطب النبوية الشريفة، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه وإن الصبر فى مواطن اليأس مما يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم وتدركون به النجاة فى الآخرة. فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه. فإن الله يقول: (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) [سورة غافر —— ١٠] انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه وأراكم من آياته، وأعزكم بعد ذلة، فاستمسكوا به يرضَ ربكم عنكم. وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمرًا، تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته فإن وعده

(١) المغازي للواقدي ١ / ٥٣ .

حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم إليه ألجأنا ظهورنا. وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير. يغفر الله لى وللمسلمين(١) .

والناظر فى هذه الخطبة وغيرها من خطب رسول الله قبل المعارك يزداد إيمانه برسول الله. ويرى أنه كان رسول الله فعلاً فنحن لا نجد فى هذه الخطبة والمفروض أنها عسكرية كلمة عن حرب أو قتال، إنما هو الإيمان بالله والتزام حدوده وأوامره ونواهيه، وهذا هو الذي ينصر الإنسان فى الحرب وغير الحرب.

وشهد الحباب مع رسول الله أحداً، وثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ وبايعه علي الموت.وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبايعه على الموت. وشهد سقيفة بنى ساعدة حين اجتمعت الانصار لتبايع سعد بن عبادة .

وكثير من الناس لايعجبهم موقف الحباب بن المنذر يوم السقيفة، ويرون أنه أخطأ حينما ناقش أبا بكر وعمر مع أننا لو دققنا النظر لرأينا أنه كان الموقف الطبيعي. ونحب أن نلاحظ هنا أن رسول الله عندما توفى أصيب أهل المدينة كلها بذهول، وقد فوجئوا بذلك، ويبدو أنهم ما كانوا يفكرون فيه فلا يجوز أن نقسو فى الحكم على أحد، ونقول أولاً إن الأنصار لم يجتمعوا فى السقيفة ليبايعوا سعد ابن عبادة ، فما كانت خلافة رسول الله ﷺ تخطر ببال أحد، وإنما اجتمع الأنصار فى السقيفة لينظروا فى هذا الأمر الجلل، وكان سعد بن عبادة نفسه مريضاً، وعندما دخل عمر مع أبى بكر وأبى عبيدة سأله عما يفعلون؟ قال إنما أنا رجل من المسلمين ، وأبو بكر اعترف فى خطابه الأول بفضل الأنصار وختم كلامه قائلاً: فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لاتفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . وهذا كلام طيب معناه أن أبا بكر كان يرى أن تستمر الأمور بعد رسول الله كما كانت فى أيامه، أى شورى بين المهاجرين والأنصار ولكنه قال: إن المهاجرين ينبغي أن يكونوا هم الأمراء فى حين يكون الأنصار هم الوزراء.

---

(١) المغازي للواقدي ١ / ٥٨ ، ٥٩ .

وهذا الكلام لم يعجب الحباب بن المنذر ، لأنه رأى أن الرياسة لاينبغى أن تكون فى المهاجرين بصورة مطلقة . وهذا موقف طبيعى فإنه ما دام أمر أمة المسلمين شورى، فلا ينبغي أن تكون الرياسة في جماعة معينة منهم بصورة دائمة، ولو كان أبو بكر فقط هو أولى الناس بالخلافة فلا يجوز أن يكون رئيساً دون تحديد مدة أو وضع قواعد لسلطانه، لأن أى سلطان دون تحديد مدة أو وضع قواعد للتصرف لابد أن يتحول من تلقاء نفسه إلى ملكية استبدادية، وكان أولى بأبى بكر وعمر أن يؤكدا للأنصار أن الأمر شورى، وأن الرياسة إذا كانت الآن فى رجل ما، فإنه لابد أن تحدد المدة وبعدها يعود الأمر إلى الأمة لكى تختار من تريد، وهذا هو المعقول، لأن مبايعة أبى بكر دون تحديد مدة أو قواعد سلطان وخلافة عمر إياه على نفس القواعد هو الذى أوقع عثمان فى الخلاف الشديد مع الأمة، فقد حسب أن الخلافة جاءته من الله ولا يجوز لأحد أن ينزعها منه. وكان هذا غير الواقع. فإن الخلافة أتته من الله طبعًا لأن كل شيء يتم فى هذه الدنيا بإرادة الله. ولكن الله يسبب الأسباب والأسباب هنا هم الناس فالخلافة جاءت عثمان من الناس وما دامت قد جاءت من الناس فللناس الحق فى عزله عنها.

والخطأ هنا ليس خطأ عثمان، بل هو خطأ الفقهاء، فلم يكن من المعقول أن يقنن كل شيء فى معاملات المسلمين إلا الخلافة، فإذا كان الفقهاء قد قننوا أبسط عمليات البيع والرهن والإجارة والتركات والزواج والطلاق، فهل كان يجوز أن تترك مسألة رياسة الدولة ووظائفها دون تقنين؟ هل كان من المعقول أن يكون كل حق الأمة عند الحاكم هو رجاء العدل، فإن لم يشأ الحاكم أن يطبق العدالة أو إذا شاء أن يظل فى الحكم ويزهق الأرواح ويستولى على الأموال كان له ما يريد ولم يكن للأمة إلا الصبر ورجاء الفرج؟.

وقد توفي الحباب بن المنذر فى خلافة عمر بن الخطاب وليس له عقب.

وإذا ذكرنا بواسل الأنصار وشجعانهم فى الحروب فلابد أن نذكر محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد من بنى الحارث بن الخزرج بن عمرو وهو المسمى

بالنبيت من الأوس. ومحمد بن مسلمة من حلفاء بنى عبد الأشهل بن جشم، وقد أسلم بالمدينة على يد مصعب بن عمير، وذلك قبل أن يسلم أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ.

وقد حضر محمد بن مسلمة بدرًا وأُحدًا وثبت فيهامع رسول الله حين انكشف الناس وحضر بقية المشاهد وأبدى فيها كلها بسالة عظيمة. وخاصة فى غزوة خيبر، وفى ذلك الغزو استشهد أخوه محمود بن مسلمة.

وقد اشتهر أمر محمد بن مسلمة فى البعوث الفردية التى كان المخلصون من الأوس والخزرج ينتدبون أنفسهم لها ويخرجون فيها بموافقة الرسول. وأهم هذه البعوث بعثة قتل كعب بن الأشرف.. كان كعب هذا من يهود المدينة وكان رجلاً غنيًا له أطم أو حصن خاص به جنوب شرق المدينة.

وعندما انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة ونجحت دعوته فيها انبرى كعب بن الأشرف عدوًا لدودًا للإسلام ولمحمد ﷺ بخاصة، وزاد فى كراهيته على بقية اليهود. ومضى يقول أشعارًا بذيئة يهجو بها الرسول ﷺ وأكثر من ذلك حتى آلم النبي وآذاه، وقد غاظ نجاح الإسلام يهود المدينة وزاد فى حقدهم، فانطلق المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذًى شديدًا فأمر الله عز وجل نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم. وفيهم أنزل ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران/ ٣ - ١٨٦] وفيهم أنزل الله عز وجل: ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة/ ٢ - ١٠٩]. فلما أبى ابن الأشرف أن ينزع عن أذى النبى ﷺ وأذى المسلمين وقد بلغ منهم[1] كان لابد من وضع حد لأذاه وبعد أن انتصر المسلمون فى بدر ضاقت الدنيا بابن الأشرف وبلغ به الغيظ مداه

(١) المغازى للواقدى [١ / ١٨٤ - ١٨٥].

وقال لقومه ويلكم لبطن الأرض خير لكم من ظهرها، وعزت عليه هزيمة القرشيين وتصور أن الدنيا انقلبت، وتأكد أن قومه معه في كراهة النبي ﷺ والإسلام، وقرر الخروج إلى مكة لتحريض القرشيين على العودة إلى الخروج لحرب المسلمين ليخرج معهم، وذهب إلى مكة ومضى يحرض القرشيين بأشعار تثير العواطف فعلاً. ومن ذلك قوله مثلاً:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع

قتلت سراة الناس حول حياضه ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع

ويقول أقوام أذل بسخطهم ... إن ابن أشرف ظل كعبًا يجزع

وتأذى رسول الله ﷺ من تصرف ابن الأشرف وأشعاره فقد كان يعرف أن كبار كفار قريش حاقدون عليه يتمنون الانتقام من المسلمين. ولكنه كان يرجو أن يهديهم الله إلى الإسلام فما كان يريد أن تستمر الحرب بينهم وبين الإسلام فيجيء هذا اليهودى الكافر النفس والقلب ويصر على تحريض القرشيين وتحريك حقدهم. فقال ذات مرة وهو بين نفر من أصحابه فيهم محمد بن مسلمة: من لى بابن الأشرف فقد آذانى، فقال محمد بن مسلمة: أنا به يا رسول الله أنا أقتله. قال: فافعل.

وبعد أن قال محمد بن مسلمة ذلك أدركته الحيرة: كيف ينفذ ما وعد الرسول به، وابن الأشرف رجل شجاع، ثم إنه متحصن فى أطم كبير، ولا سبيل إليه، وصارح الرسول بذلك فقلا له: عليك الجهد. ونصحه الرسول بأن يستشير فى الأمر نفراً من المسلمين وشاور محمد بن مسلمة عدداً من المسلمين منهم عباد بن بشر وأبو نائلة سلكان بن سلامة والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر. فقالوا يا رسول الله نحن نقتله. فأذن لنا فلنقل. يريدون أن يأذن لهم فى أن يقولوا ما يشاءون مما يسهل لهم مهمتهم فأذن لهم.

فخرج أبو نائلة إلى ابن الأشرف فلما رآه ذعر وخاف على نفسه فإنه كان

يعرف أن أبا نائلة سلكان بن سلامة من أوثق المسلمين وأقربهم إلى رسول الله ﷺ ولكنه أذن لأبى نائلة أن يقترب منه ويحدثه، فقد كان كعب بن الأشرف فى وسط قومه وكان أبو نائلة ومحمد بن مسلمة وكعب بن الأشرف أخوه فى الرضاعة، فلما أذن ابن الأشرف لأبى نائلة في الاقتراب منه والتحدث إليه سمع منه وسره، فانبسط إليه وانصرف قوم كعب وتركه وحده مع أبي نائلة ليتحدث دون حرج، فلما خلا به تصنع الضيق بمحمد ﷺ والإسلام، وقال: كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، وحاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وكلامًا فى هذا المعنى، فسر ابن الأشرف بذلك وأنس إلى أبى نائلة وقال له: والله كنت أحدثك بهذا يا ابن سلامة إن الأمر سيصير إليه ثم قال له أبو نائلة إن معه نفراً من قومه على مثل رأيه وهو يريد أن يأتى بهم إلى كعب ليبتاعوا منه ثمراً ويعاملهم ابن الأشرف فى ذلك معاملة طيبة، فوعد بذلك ابن الأشرف ثم سأله: ماذا يريد أن يفعل، فقال: خذلانه (أى خذلان رسول الله ﷺ والتنحي عنه) فسر ابن الأشرف بذلك وطلب منه أن يرهنا عنده بعض أولادهم ونسائهم حتى يطمئن فاعتذر أبو نائلة بأن ذلك يفضحه ويفضح أصحابه واتفقوا على أن يرهنا أسلحتهم فاطمأن إلى ذلك ابن الأشرف.

ثم ذهب محمد بن مسلمة وأبو نائلة وعباد بن بشر والحارث بن أوس ومعهم سلاحهم ليرهنوه عنده فى الظاهر ولكن فى الحقيقة إنهم كانوا ينوون قتله به، جلسوا يتحدثون إليه حتى استراح إليهم وكانت الليلة مقمرة فقاموا يتماشون ويتحدثون حتى بلغوا موضعًا بعيداً عن حصنه يسمى شرج العجوز ضرب أبو نائلة يده فى شعر كعب بن الأشرف وجبذه وانهالوا عليه بالسيوف حتى مات وكان الذى قتله محمد بن مسلمة قتله بحديدة ذات سن حاد كانت معه ثم حملوا رأسه ومضوا به إلى المدينة.

وقد كان لقتل ذلك الرجل الخطر أثر بعيد فى المدينة فقد خافت اليهود ممن كانوا يستصغرون أمر الإسلام ويعتدون عليه وهذا مثال من استبسال الأنصار فى سبيل الإسلام وكان محمد بن مسلمة رجلاً طويلاً شديد السمر أصلع وقد اعتزل الدنيا والحرب وكسر سيفه عندما قامت فتنة عثمان.

أعـــز أمـــانيـــهـــم
الشـــهـادة فـى سـبـيل اللـــه

فى أثناء فتح العرب لمصر يقول قائد من قواد الروم عن العرب: «رأيت ناسًا الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليست لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإن حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم» .

والذي يهمنا فى هذه الكلمة البليغة قوله عن العرب:إن الموت أحب إليهم من الحياة ؛لأن الإنسان إذا بلغ هذا المبلغ من التفانى في الصراع فى سبيل دينه أو مبدئه فهو لن يغلب أبدًا، لأن الناس تحارب فى سبيل الحياة، فإذا هانت الحياة في سبيل الدين أصبح من العسير جدًا أن يخسر الإنسان معركة إلا إذا مات. والموت فى مثل هذا الموقف لون من ألوان الخلود.

وهذا كان حال الأنصار فى صراعهم فى سبيل الإسلام: كانوا يحاربون طلبًا للشهادة فى سبيل الإسلام فانتصر بهم الإسلام وعز. حقًا إن الكثيرين جدًا منهم ماتوا في سبيل الإسلام. ولكن الواحد منهم ما كان يموت إلا بعد أن يقتل من العدو العدد الوفير. فأصبح الأعداء يخشونهم، وعز بهم الإسلام وانتصر وثبتت أقدامه.

وسأضرب لك أمثلة من تفانى الأنصار وطلبهم الشهادة فى سبيل الإسلام، وسآخذها من قبيل واحد من الأنصار وهم بنو عبد الأشهل من الأوس. وهم أهل راتج، فسعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل.

وكان من أوائل المسلمين، وهو عقبى نقيب بدرى، بذل المجهود العظيم فى نشر

الإسلام فى المدينة، وحضر بدراً واحداً وأبلى فيهما البلاء الحسن، وفى الخندق أصيب فى كعبه إصابة قاتلة، ورقد فى خيمة فى ساحة المسجد يتداوى والرسول يعوده، وكواه الرسول لكى يشفى جرحه ويقطع النزيف فانقطع حيناً، ثم كان نصر الرسول صلوات الله عليه على بني قريظة، وطلب اليهود تحكيم سعد بن معاذ فيهم، لأنه كان حليفهم من قبل، وأذن له الرسول فى ذلك. وعلى الرغم من جرحه الشديد فقد أركبوه حماراً وحملوه إلى موضع التحكيم. فلما طلع على رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيدكم، وذلك تعظيماً من رسول الله لمركز القاضى، وقال له رسول الله: احكم فيهم، قال: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله. ثم دعا سعد الله فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حروب قريش شيئاً فأبقنى لها، وإن كنت قطعت الحرب بينك وبينهم فاقبضنى إليك. فانفجر جرحه وقد كان برىء حتى ما يرى منه شيء إلا مثل الخرص. ورجع إلى قبته التى ضربها عليه رسول الله ﷺ فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وغيرهم ثم مات سعد بن معاذ وحمله قومه ليدفنوه فى مدافنهم وصلى عليه رسول الله ﷺ .

ومن نفس بنى عبد الأشهل استشهد عمر بن معاذ، وهو اخو سعد بن معاذ لأمه، وقد استشهد عمر فى معركة أحد، قتله ضرار بن الخطاب، وكان من فرسان قريش، وكانت سن عمر بن معاذ يوم استشهد اثنتين وثلاثين سنة . ولم يعقب.

ومنهم ابن أخيهما الحارث بن أنس بن معاذ بن النعمان ابن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وشهد الحارث بدراً، وأبدى بسالة عظيمة، وكان - كما رأينا - فيمن قتل كعب بن الأشرف، ثم استشهد بعد ذلك فى أحد وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

وقد سبق أن ذكرنا كيف كان الحارث بن أنس فى جماعة الأوس التى وفدت على مكة اترى ماذا فعلت الخزرج فى محاولتها التحالف مع قريش، وكان معهم أنس بن معاذ وكان إذ ذاك غلاماً، ولكنه رأى الحق فيما حدثهم به رسول الله ﷺ من أن الله بعثه بالحق. فغضب الميسر بن رافع رئيس الوفد. وأخذ حفنة من تراب فرمى بها وجه الحارث، وقال: إنا خرجنا نطلب حلف قريش على عدونا. فنرجع بعداوة قريش مع عدواة الخزرج! وعادوا إلى المدينة. فلم ينشب إياس بن معاذ أن مات، فكان المسلمون يرون أنه مات مسلماً، فإن كان كذلك فيكون إياس ابن معاذ – وهو أخو سعد بن معاذ وعمر بن معاذ – أول من أسلم من بنى عبد الأشهل، ومن بنى عبد الأشهل أيضاً سعد بن زيد بن مالك بن عبد كعب بن عبد الأشهل، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار فى رواية محمد بن سعد، ولكن موسى بن عقبة لم يذكره فيهم، وقد حضر سعد بن زيد بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد بعثه رسول اللّه ﷺ فى سرية إلى المشلل ليهدم صنم مناة ففعل.

ومنهم كذلك مسلمة بن سلامة بن وقش بن زغبة بن زعوراء. وكان أول أمره سليط اللسان لا يتحشم فى كلامه، وكان رسول الله يتغافل عنه لعله يتعظ ويتخلق بخلق الإسلام، فلما كانت موقعة بدر وانتصر المسلمون وعادوا إلى المدينة، سأل الناس مسلمة بن سلامة عما وقع فقال فى استخفاف: إن لقينا إلا عجائز صلعاً، وهنا قال له الرسول: يا ابن أخى، أولئك هم الملأ يريد أن هؤلاء الدين قابلوا المسلمين وانهزموا فى بدر هم رؤساء الناس وعلية القوم وعليهم المعول، وأحس مسلمة بن سلامة أن رسول الله ﷺ غير راض عنه. فقال: أراك غير راض عنى يا رسول الله؟. فقال له الرسول: أما هذا فنعم! فقد قلت فى يوم كذا كذا.. وفى يوم كذا كيت، وجعل يعدد له أخطاءه، فاستحيا مسلمة بن سلامة، ولم يعد إلى الخطأ والإفحاش فى القول بعد ذلك. وقد شهد مسلمة بن سلامة المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى سنة خمس وأربعين للهجرة عن سبعين سنة.

ومن بنى زعوراء من بنـي عبد الأشـهل عباد بن بشر بن قش بن زعية ابن زعوراء بن عبد الأشهل، وقد تحدثنا عنه فيما سلف، وذكرنا استشهاده العظيم فى اليمامة.

وكان عباد بن بشر من ملأ الناس وعلية القوم، وقد رضى عنه رسول الله ﷺ طوال حياته كلها، وقد شهد بدراً وأحداً وثبت يومها مع رسول الله ﷺ عندما انكشف الناس، وحضر الخندق والمشاهد كلها، وكان فى الجماعة التى قتلت كعب ابن الأشرف. وعندما اختار رسول الله المصدقين أرسله مصدقًا لبنى المصطلق من خزاعة، فأقام فيهم عشرة أشهر، وأقامه رسول الله على مقاسم حنين، وجعله الرسول على حرسه حين خرج إلى تبوك وكان من أصحاب ابن سعيد الخدرى الفقيه المشهور، ولم يعجبه تصرف أبى بكر وعمر مع الأنصار بعد ما كان من الحباب بن المنذر يوم السقيفة فاعتزل، وهذا هو السر فى رغبته فى الاستشهاد فى موقعة اليمامة كما رأينا.

ومن أبطال بنى عبد الأشهل وشهدائهم سلمة بن ثابت بن وقش بن زغية بن زعوراء بن عبد الأشهل وقد استشهد فى أحد فى شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً بعد الهجرة، وقتل معه يوم أحد أبو ثابت بن وقش وعمه رفاعة بن وقش شهيدين، ولم يكن له عقب فانقرض، وانقرض كذلك ولد وقش وابن زغية جميعًا فلم يبق منهم أحد.

ومن روائع ما يذكر من أخبار الأنصار فى الجهاد والاستشهاد، خبر عبد الله ابن سهل وأخيه رافع بن سهل، والاثنان من بنى الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، وأمه الصعبة بنت التيهان أخت أبى الهيثم بن التيهان، وهذان الأخوان الأنصاريان خرجا وهما جريحان فى غزوة حمراء الأسد يحمل أحدهما صاحبه.

وحمراء الأسد غزوة بعد غزوة أحد مباشرة، أراد بها رسول الله أن يخيف

قريشاً ويبعدهم عن المدينة بعد أحد.. وكان القرشيون قد أحسوا آخر معركة أحد أنهم في الحقيقة لم يبلغوا من المدينة شيئًا إلا قتل بعض الرجال، وقد نجح رسول الله ﷺ فى الإمساك بهم طول النهار خارج المدينة عند أحد، وكانوا يستطيعون لو فكروا أن يقتحموا المدينة، وتوقفوا يفكرون فى ذلك غير بعيد من المدينة، فأمر رسول الله المسلمين بالخروج معه لمطاردة المشركين، وخاف المشركون أن يكون المسلمون قد جمعوا جمعهم وساروا إليهم فأسرعوا فى الهرب، ومضى رسول الله ﷺ والمسلمون يتتبعون المشركين حتى جنهم الليل عند حمراء الأسد. وكان الكثيرون من المسلمين جرحى من يوم أحد، فكانوا يتحاملون وكان من بينهم عبد الله بن سهل وأخوه رافع، وفى حمراء الأسد أوقد المسلمون بأمر رسول الله خمسمائة نار حتى أضاء الليل. ولم يبق عند المشركين شك فى أن المسلمين لو أدركوهم لأبادوهم فأسرعوا هاربين نحو مكة.

وقد استشهد عبد الله بن عمرو بن جشم فى معركة الخندق، ولم يكن له عقب فانقرض، وانقرض كذلك ولد عمرو بن جشم بن الحارث بن الخزرج وهم أهل راتج إلا نفراً قليلاً من غسان كانوا فيهم.

أما أبو الهيثم بن التَّيِّهان (بتشديد التاء وفتحها وتشديد الياء وكسرها) الذى ذكرناه كثيراً فهو مالك بن يلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة حليف لبنى عبد الأسد، وهناك من يقولون: إن أبا الهيثم بن التيهان ليس من بني عبد الأشهل أصلاً، وإنه من بني عمرو بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو، وهو النبيت ابن مالك بن الأوس، وأمه أيضًا من النبيت.

وكان أبو الهيثم بن التيهان يكره الأصنام وينفر منها فى الجاهلة، ومثله فى ذلك كان أسعد بن زرارة وكانا يقولان بالتوحيد، فكأنه كان من الباحثين عن الحق من الحنيفية من أهل مكة. وكان أبو الهيثم من الستة الذين كانوا أول من لقى رسول الله ﷺ وأسلموا من الأنصار وكان من السبعين أصحاب العقبة الثانية

الذين أسلموا، وكان أحد النقباء الاثنى عشر، وشهد أبو الهيثم بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله خارصًا إلى خيبر فخرص عليهم التمر، وذلك بعد ما قتل عبد الله بن رواحة بمؤتة، وبعد رسول الله رفض أن يخرص على يهود خيبر لأبى بكر.. وقد توفى أبو الهيثم فى خلافة عمر سنة عشرين للهجرة.

وكان لأبى الهيثم بن التيهان أخ يسمى عبيد الله أو عتيك بن التيهان، قتل يوم أحد شهيداً، وكان لعبد الله ولد يسمى عبيد الله بن التيهان قُتل يوم اليمامة شهيدًا وقد انقرض آل التيهان.

ومن بواسل الأنصار وشهدائهم عبد الله بن طارق بن عمرو وأصله من قضاعة، وهو من حلفاء بنى ظفر من الخزرج وقد شهد بدرًا وأحدًا، وكان فيمن بعثهم رسول الله ﷺ إلى بنى لحيان في سرية الرجيع ليعلموهم قواعد الإسلام فغدروا بهم وقبضوا عليهم، وساروا بعبد الله بن طارق مع خبيب بن عدى ليبيعوهما لقريش في مكة، فلما كانوا فى مر الظهران كبر عليه أن يؤخذ ويشد وثاقه ويباع فى مكة، فنفر من آسريه، وقال والله لا أصاحبكم، إن لي بهؤلاء أسوة، يشير إلى أصحابه الذين استشهدوا عند الرجيع، ونزع يده عن رباطه وانتزع سيفه فانحازوا عنه، وجعل يشد عليهم ويفرجون عنه. فأخذوا يرمونه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره فى مر الظهران.

ولأبي لبابة خبر طريف يدلك على إخلاصه وتفانيه فى سبيل الإسلام، وذلك أن يهود بنى قريظة عندما طال عليهم الحصار عقابًا لهم على خيانة المسلمين أيام حصار الخندق مالوا إلى الصلح، وكان أبو لبابة بن عبد المنذر حليفًا لهم من قبل.

فأرسلوا إلى رسول الله يطلبون إليه أن يرسل لهم أبا لبابة ليكون وسيطًا بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه وقال له: اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس!.

فذهب إليهم وقد اشتد عليهم الحصار، فأسرعوا إليه وقالوا: يا أبا ابابة إنا نحن مواليك من دون الناس كلهم، فقام كعب بن أسد (من يهود بني قريظة) فقال. يا أبا بشير قد علمت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق وبعاث، وكل حرب كنتم فيها، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر، وان نطأ له حرًا أبداً فقال أبو لبابة: أما ما كان هذا معكم فلا يدع هلاككم «وأشار إلى حيي بن أخطب»، قال كعب: هو والله أوردني ثم لم يصدرني، فقال حيي: فما أصنع؟ كنت أطمع في أمره فلما أخطأني وأمنيك بنفسي، يصيبني ما أصابك قال كعب: وما حاجتي إلى أن أقتل أنا وأنت وتسبى ذرارينا؟ قال حيي: ملحمة وبلاء كتبت علينا، ثم قال كعب: ما ترى؟ فإنا قد أخترناك على غيرك، إن محمداً قد أبى إلا أن ننزل على حكمه، أفننزل؟ قال نعم، فانزلوا – وأومأ إلى حلقه – هو الذبح– قال: فندمت فاسترجعت فقال لي كعب. مالك يا أبا لبابة؟ فقلت: خنت الله ورسوله! فنزلت وإن لحيتي لمبتلة من الدموع، والناس ينتظرون رجوعي إليهم حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً آخر حتى جئت إلى المسجد فارتبطت (يريد فربطت نفسي إلى عمود من أعمدة المسجد) فكان ارتباطي إلى الاسطوانة المخلقة التي تقال: اسطوانة التوبة ويقال: ليس تلك وإنما ارتبط إلى اسطوانة كانت وجاه المنبر عند باب أم سلمة زوج الرسول ﷺ وهذا أثبت القولين. وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعت فقال: دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء لو كان جاءني استغفرت له، فأما إذا لم يأتني وذهب فدعوه. فقال أبو لبابة: فكنت في أمر عظيم خمس عشرة ليلة، وأذكر رؤيا رأيتها.. فحدثني معمر عن الزهري قال: وكان رسول الله ﷺ قد استعمل أبا لبابة على قتالهم، فلما أحدث ما أحدث عزله واستعمل أسيد (ابن حضير). وارتبط أبو لبابة سبعاً بين يوم وليلة عند الاسطوانة التي عند باب أم سلمة في حر شديد. لا يأكل فيهن ولا يشرب وقال: لا أزال هكذا حتى ما يسمع الصوت من الجهد. ورسول الله ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب الله

عليه فنودي: إن الله قد تاب عليك وأرسل النبي ﷺ ليطلق عنه رباطه فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ فجاء رسول الله بنفسه فأطلقه[1] .

هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين حقاً.

ومن بديع أخبار الأنصار في الحرب والجهاد ما يحكى عن سعد بن عبيد بن النعمان من بني أمية بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف من الأوس. وهو من القلائل الذين جمعوا القرآن أيام الرسول ﷺ ولهذا كان يقال له سعد القاريء، وكان سعد بن عبيد قد اشترك في فتح العراق، وكان ممن شهدوا معركة الجسر وفروا واستعادهم عمر بن الخطاب، وقال له: هل لك في الشام؟ فإن المسلمين قد نزفوا به، وإن العدو قد زئروا عليهم، ولعلك تغسل عنك الهنيهة (أي العار الذي لحق بك نتيجة لهزيمة الجسر) قال: لا إلا الأرض التي فررت منها، والعدو الذين صنعوا بي ما صنعوا (أي العدو الذي هزمه في موقعة الجسر واضطره إلى الفرار) قال: فجاء إلى القادسية فقتل[2] .

ومن عظام الأنصار الذين أثرت عنهم أعمال جليلة عويم بن ساعدة بن عائش ابن قيس بن النعمان بن زيد بن أمية وهو من أوائل من لقي رسول الله وأسلم من أهل المدينة وكان من السبعين أهل العقبة الثانية، وكان رسول الله يحبه ويقدره، وقد آخي بينه وبين عمر بن الخطاب، وقد روى الكثيرون أنهم سمعوا الرسول ﷺ يقول: نعم العبد من عباد الله والرجل من أهل الجنة عويم بن ساعدة، قال موسى بن عقبة: وبلغني أنه لمّا نزلت فيه ﴿ رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ (التوبة ٩/ ١٠٨) قال رسول الله ﷺ : منهم عويم بن ساعدة.

وكان عويم بن ساعدة أحد الرجلين من الأنصار اللذين نبها أبا بكر وعمر إلى أن الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة والرجل الثاني معن بن عدي. وكان

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٥٠٦ ، ٥٠٨.

(٢) طبقات ابن سعد ٣ / ٣٠ القسم الثاني.

لهما بذلك يد في انتخاب أبي بكر خليفة لرسول الله، وظل عمر بن الخطاب عمره كله ذاكراً لعويم بن ساعدة هذا الفضل ..

* * *

شهداء بئر معونة والرجيع

في أحد فصول هذه الدراسة قلت إن الذي أعطى الأنصار قوتهم الهائلة في الجهاد وقدرتهم التي لاتقاوم في ميادين الحرب، هو أنهم كانوا قوماً باعوا أنفسهم لله، فأصبح الموت في سبيله أمنيتهم الكبرى، وهذه درجة من القوة تجعل الإنسان لايغلب حقاً، فما دام قد استهان بالموت في سبيل دينه، فأي قوة تثبت له بعد ذلك؟ وتلك هي الموعظة الكبرى التي نخرج بها من دراسة تاريخ الأنصار: اطلب الموت توهب لك الحياة.

وإليك بعد الذي قصصت عليك من المثل التي يضربها لنا الأنصار، مثالين خالدين، هما مثال شهداء سرية بئر معونة ثم سرية الرجيع، وهما الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون من غزوات النبي ﷺ وسراياه.

فأما حديث سرية بئر معونة فهو أن إقليم عوالي نجد الواقع بين المدينة المنورة ونجد، كانت تسكنه قبائل من فرع قيس عيلان بن مضر. معظمها من الأعراب، لادين لها ولا أمان، وقبائل الأعاريب هذه كانت تعيش في الغالب من السلب والنهب، فتفرض الأتاوات على القوافل المارة بأرضها، والأموال على البلاد المستقرة إلى جوارها، من مثل خيبر وتيماء وفدك، ولما قامت أمة المدينة حاولت أن تفرض نفسها على المدينة، ولكن رسول الله أبي أن يؤدي لهم درهماً أو صاع تمر، وكانت ثروة المدينة في تزايد وقوافلها ذاهبة آتية، وهذا القبائل يزداد طمعها وخوفها، لأنها كانت تعلم أن أي عدوان على المدينة أو قوافلها لابد أن يلقي الجزاء الأليم.

وكان عامر بن مالك بن جعفر أبو البراء ملاعب الأسنة شيخاً كبيراً من شيوخ بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة أبناء عمومة بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانوا جميعاً بدوا لايقر لهم قرار، ولم يكونوا قد أسلموا. ولكنهم كانوا

مهادنين لأمة الإسلام، فكانت قوافل المسلمين تروح وتجيء في بلادهم وهم يتحرقون إلى نهبها، ولكنهم يخشون عقاب أمة الإسلام.

وفي شهر صفر على رأس العام الثالث للهجرة وفد على رسول الله في المدينة عامر بن مالك بن جعفر أبو ملاعب الأسنة، فعرض عليه الرسول الإسلام فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام، وهؤلاء الأعراب كانت قلوبهم قاسية لاتعرف الإيمان، فتركه رسول الله وشأنه حتى يفتح الله قلبه للإيمان. وكان هذا الرجل قد حمل إلى رسول الله هدية فرسين وراحلتين، فردها رسول الله إليه، وقال: لاأقبل هدية مشرك.

وقال عامر بن مالك بن جعفر لرسول الله: يامحمد إني أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً، وقومي خلفي، فلو أنك بعثت نفراً من أصحابك معي لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوا أمرك فإن هم أتبعوك فما أعز دعوتك، وكان أبو ملاعب الأسنة هذا ينتظر أن يسلم قومه فيسلم معهم، وكان يخشى أن يسلم وحده فيفقد رياسته، فقال له رسول الله ﷺ : إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال عامر: لاتخف عليهم، أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد، فرأي رسول الله ﷺ أن يستجيب لطلبه على هذا الشرط.

وكان في المدينة نفر من شباب الأنصار قد وهبوا أنفسهم للإسلام، وكانوا يقضون الليل في قراءة القرآن والصلاة والتسبيح، وكانوا يسمون القراء، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب فجاءوا إلى حجرات رسول الله ﷺ ، وكانت هذه حياتهم، فكان أهلوهم يحسبون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يحسبونهم في أهليهم.

فرأى الرسول أن يبعث بهم إلى أعاريب نجد ليدعوهم إلى الإسلام في جوار عامر بن مالك بن جعفر أبي البراء ملاعب الأسنة، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي، وهو ابن خنيس بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن

ساعدة، وهو عقبي بدري، وكان عدد من معه أربعين، ويقال سبعون، والعدد الأول أصح، وكانت وجهتهم بئر معونة، وهو ماء من مياه بني سليم، وهي من أرض بني عامر وبني سليم بين المدينة ومكة.

وكان عامر بن الطفيل شيخ بن لحيان من أعاريب نجد ينتظر هذه الفرصة، فلما وصله حرام بن ملحان أحد الأنصار بكتاب رسول رسول الله لم يقرأ الكتاب، بل وثب على رسول رسول الله فقتله، وقد كان عامر بن مالك أبو براء ملاعب الأسنة قد خرج قبل القوم ليبلغ بني عامر أنه أجار وفد المسلمين فأطاعه بنو عامر، فاتجه عامر بن الطفيل إلى قبائل أخرى صغيرة من بني سليم مثل عصية ورعل، وانضم إليهم نفر من بني عامر، وأحاط أولئك العتاة بالمسلمين وقاتلوهم حتى قتلوهم إلا رئيسهم المنذر بن عمرو، فقد قالوا له إنهم مستعدون لإطلاق سراحه فأبي، وقال لهم لن أعطى بيدي ولن أقبل لكم أمانا حتى آتى مقتل حرام بن ملحان، ثم بريء مني جواركم، فأمنوه حتى أتى مصرع حرام ثم برئوا إليه من جوارهم، ثم قاتلهم حتى قتل، ولهذا قال فيه الرسول ﷺ : أعتق ليموت. أي أنهم أطلقوا سراحه فأبي إلا أن يستشهد.

وكان قد بقي من المسلمين نفر قليل منهم الحارث بن الصمة وعمرو بن أمية، وكانا بموضع يقال له السرح، فلما استأخر إخوانهم في الرجوع ارتابا في الأمر، ونظرا فإذا الطير تحوم في السماء فوق موضع أصحابهم، فجعلا يقولان: قتل والله أصحابنا، والله ما قتل أصحابنا إلا أهل نجد، ثم صعد الحارث ان الصمة على نشز من الأرض فإذا أصحابهم مقتلون، وإذا الخيل واقفة، فقال الحارث بن الصمة لعمرو بن أمية: ما ترى؟ فقال عمرو: أري أن ألحق برسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال الحارث: ما كنت لأتأخر عن موضع قتله فيها المنذر، فأقبلا على القوم، فقاتلهم الحارث حتى قتل منهم اثنين، ثم أخذوه فأسروه، وأسروا عمراً بن أمية، وقالوا للحارث: ماتحب أن نصنع بك؟ فإنا نحب قتلك، قال: أبلغوني مصرع المنذر وحرام ثم برئت مني ذمتكم، قالوا: نفعل، فبلغوا به ثم أرسلوه

فقاتلهم فقتل منهم اثنين، فما قتلوه حتى شرعوا له الرماح فنظموه فيها.

وقال عامر بن الطفيل لعمرو بن أمية – وهو أسير في أيديهم ولم يقاتل – إنه كانت على أمي نسمة فأنت حر عنها، وجز ناصيته، وسأل عامر بن الطفيل عمر ابن أمية: هل تعرف أصحابك؟ (يريد القتل) فقال نعم، وطاف عليهم يتعرف عليهم، ثم قال: لا أجد بينهم عامر بن فهيرة مولي أبي بكر، ثم اتضح بعد ذلك أن رجلاً من بني كلاب يقال له جبار بن سلمى قتله، ويقال إن الملائكة رفعته إلى السماء، وحكي الذي قتله أنه سمعه يقول: فزت، وقد تحير الرجل فيما أراد عامر بن فهيرة بقوله: فزت، عندما قتل، ثم عرف أنه يريد أنه فاز بالجنة، فأسلم الرجل، وكتب الضحاك بن سفيان الكلابي إلى رسول الله بذلك كله، فقال رسول الله ﷺ فإن الملائكة وارت جثته وأنزل عليين.

وقد جاء رسول الله خبر بئر معونة في نفس الليلة التي جاءه فيها خبر مأساة الرجيع، فاشتد حزنه وقال: هذا عمل أبي براء (عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة) وقد كنت لهذا كارهاً، ودعا رسول الله على قتلهم بعد الركعة الثانية من صلاة الصبح في صبح تلك الليلة التي جاءه فيها الخبر. فلما قال: سمع الله لمن حمده، قال: اللهم اشدد وطأتك على مضر. اللهم عليك ببني لحيان وزعب ورعل وذكوان وعاصية، فإنهم عصوا الله ورسوله، اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة. اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله، ثم سجد، فقال ذلك خمسة عشر، ويقال أربعين يوماً حتى نزلت هذه الآية: ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ (آل عمران ٣/١٢٨) وكان أنس بن مالك يقول: يارب! سبعون من الأنصار يوم بئر معونة! وكان أبو سعيد الخدري يقول: قتلت من الأنصار في مواطن سبعون سبعون: يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون،، ويوم جسر أبي عبيد سبعون!

ولم يجد رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة(١) .

وقد حزن أبو البراء لخيانة ابن أخيه عامر بن الطفيل إياه بالعدوان على أصحاب رسول الله، وحاول أن يسترضي رسول الله بالمسير إليه على قدميه رغم كبر سنة وإهدائه فرساً، فرد رسول الله الهدية، وحاول ربيعة بن أبي البراء قتل عامر بن الطفيل.

وأقبل رجل من آل ملاعب الأسنة على النبي ﷺ وأسلم، وعندما كان قرب وادي القناة بالمدينة لقي رجلين من بني كلاب كانا قد وفدا على رسول الله وأسلما دون علم ذلك الرجل من آل ملاعب الأسنة، فقتلهما لما حدث لشهداء بئر معونة، فلما علم الرسول ﷺ بذلك قال له. بئس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما مني أمان وجوار! لأدِيَنَّهُمَا! وبعث الرسول فعلاً بديتهما إلى عامر بن الطفيل.

وقد استشهد من الأنصار أربعون أورد أسماءهم الواقدي في المغازي(٢) ومن المهاجرين ثلاثة وردت أسماؤهم في نفس الموضع.

وكانت مأساة الرجيع مشابهة لمأساة بئر معونة، وقد وقعت في نفس الوقت، وهي أيضاً حكاية غدر الأعاريب قيس عيلان من أهل عالية نجد بطائفة من المسلمين على صورة بالغة الخسة والدناءة، وكانت في صفر أول السنة الثالثة للهجرة.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد قتلوا رجلاً من هذيل يسمى سفيان بن نبيح في لقاء بينهم، فأراد الهذليون أن ينتقموا لصاحبهم، فذهبوا إلى عضل والقارة، وهما بطنان من الهون بن خزيمة بن مدركة، ويدخلان في أحابيش قريش، وكانا من عتاة الأعراب الكارهين لأمة المدينة، وقد رأينا رسول الله ﷺ يدعو عليهم فيمن دعا عليهم من بطون قيس عيلان بن مضر ممن اعتدوا على آل بئر معونة، وكان بعض عضل والقارة مقرين بالإسلام دون إيمان حقيقي، فأقبل سبعة منهم

---

(١) المغازي للواقدي ١ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٢) السابق ١ / ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

على رسول الله ﷺ ، وقالوا له: إن فينـا إسـلاماً فاشـياً، فابعـث معنـا نفراً من أصحابنا يقرئوننا القرآن ويفقهوننا في الإسلام، فبعث معهم سبعة أو عشرة نفر من الأنصار ومواليهم، ورئيسهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي من بني غني، وهم بطن من باهلة من قيس عيلان، وكان مرثد قد أسلم وهاجر إلى المدينة، وخرج معه خالد بن أبي البكير، وعبد الله بن طارق البدري حليف بني ظفر من الخزرج، وأخوه لأمه معتب بن عبيد، وكان أيضاً حليفاً لبني ظفر، وخبيب بن عدي بن الحارث بن الخزرج، وزيد بن الدثنة من بني بياضة من الخزرج، وعاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ويلقب بحمي الدبر لأن الدبر أي الزنابير عمت جثته كما سنرى، ويقال إنه كان أمير الجماعة التي خرجت إلى عضل والقارة، ولكن الأثبت أن أميرها كان مرثد بن أبي مرثد.

فلما وصل أصحاب رسول الله ﷺ إلى منازل بني لحيان ومعهم نفر من عضل والقارة أحاط بهم نحو مائة من هؤلاء ومعهم النبل والسيوف، وكان ذلك في موقع يسمى الرجيع قرب الهدة غير بعيد من الطائف،و قالوا لهم: ما نريد بكم شراً، مانريد إلا أن نصيب بكم مالا من قريش، ولكن عهد الله وميثاقه لانقتلكم، فأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق فاستأسروا، وقال خبيب: إن لي عند القوم يداً (يريد بالقوم أهل مكة) وأما عاصم بن ثابت ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن أبي البكير ومعتب بن عبيد فلم يصدقوا ماقاله هؤلاء الغادرون، وقاتلوا حتى استشهدوا، وكانت امرأة من الكفار تسمى سلافة بنت سعد بن الشهيد قد نذرت لمن يأتيها برأس عاصم بن ثابت بن الأقلح مائة ناقة لتشرب فيه الخمر، لأن عاصماً كان قد قتل اثنين من بنيها، فلما اشتشهد ذهب قتلته ليأتوا بجثته فسلط الله الدبر – أي الزنابير – فاجتمعت عليه، وحالت دون الوصول إليه طول النهار، وعندما أتى الليل احتمله السيل فلم يعثر أحد على جثته، ولم تحصل عليها سلافة.

وقال عمر بن الخطاب: إن الله عز وجل ليحفظ المؤمنين فمنعه الله أن يمسوه بعد وفاته، كما امتنع عليهم في حياته.

وقتل معتب بن عبيد بعد أن قاتل قتال الأبطال، وخرجوا بخبيب بن عدي وعبد الله بن طارق وزيد بن الدثنة، وساروا بهم مقيدة أيديهم بأوتار قسيهم في اتجاه مكة، فلما بلغوا مر الظهران قال عبد الله بن طارق: هذا أول الغدر، والله لا أصاحبكم! إن لي في هؤلاء لأسوة – يعني أصحابه الذين استشهدوا – ونزع يده من رباطه، وأخذ سيفه وهجم عليهم، فانحازوا عنه وجعل يشد عليهم وأخذوا يرمونه بالحجارة حتى قتلوه عند مر الظهران، وقبره هناك.

* * *

وخرج الكفار الغادرون من بني عضل والقارة وبني لحيان بخبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة، فأما خبيب فابتاعه مجير بن أبي أهاب بثمانين مثقالاً من ذهب، ويقال اشتراه بخمسين فريضة أي ناقة، ويقال اشترته ابنة الحارث بن عامر بن نوفل بمائة من الإبل، وكان مجير إنما اشتراه لابن عقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه الذي قتل في بدر، وأما زيد بن الدثنة، فاشتراه صفوان بن أمية بخمسين فريضة، قتله بأبيه ويقال إنه أشرك فيه أناساً من قريش.

ثم دخل شهر ذي القعدة وهو شهر حرام فحبس مجير خبيب بن عدي في بيت امرأة يقال لها ماوية، مولاة لبني عبد مناف، وحبس صفوان بن أمية زيد بن الدثنة عند ناس من بني جمح، ويقال عند نسطاس غلامه.

وكانت ماوية قد أسلمت بعد فحسن إسلامها وكانت تقول: والله ما رأيت أحداً خيراً من خبيب، والله لقد اطلعت عليه من شق الباب وإنه لفي الحديد، وما أعلم في الأرض حبة عنب تؤكل، وإن في يده لقطف عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما هو إلا رزق رزقه الله، وكان خبيب يتهجد بالقرآن، وكان تسمعه النساء فيبكين ويرققن عليه، قلت له: يا خبيب، هل لك من حاجة؟ قال: لا. إلا أن تسقيني العذب،

ولا تطعميني ماذبح على النصب، وتخبريني إذا أرادوا قتلي، فلما انسلخت الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتته فأخبرته، فوالله ما رأيته اكترث لذلك وقال: ابعثي لي بجريدة (يريد موسى) استصلح بها، قالت فبعثت له موسى مع ابني أبي حسين[1] .

وهنا خافت المرأة أن يمسك خبيب بالسكين والطفل ويهدد بقتله إن لم تطلق سراحه، ولكن خبيب كان أبعد ما يكون عن مثل هذا التفكير، فلما أتاه الغلام بالموسى أخذه منه وقال له ممازحاً: وأبيك إنك لجريء! أما خشيت أمك غدري حين بعثت معك بجريدة وأنتم تريدون قتلي؟ فقالت ماوية: وأنا أسمع ذلك فقلت: يا خبيب، إنما أمنتك بأمان الله وأعطيتك بآلهك، ولم أعطك لتقتل ابني، فقال خبيب: ما كنت لأقتل ابنك، وما نستحل في ديننا الغدر! ثم أخبرته إنهم مخرجوه فقاتلوه بالغداة.

فأخرجوه بالحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة، فلم يتخلف أحد: إما موتور فهو يريد أن يتشفى بالنظر من وتره، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله، فلما انتهوا به إلى التنعيم ومعه زيد بن الدثنة، فأمر بخشبة طويلة فحفر لها. فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال: هل أنتم تاركي فأصلي ركعتين؟ قالوا: نعم، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطيل فيهما.

قال الواقدي: فحدثني معمر بن راشد عن.. عن.. عن أبي هريرة قال: أول من سن الركعتين عند القتل خبيب قالوا: ثم قال: أما والله لولا أن تروا أني جزعت من الموت لاستكثرت من الصلاة، ثم قال: الله احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً.

---

(١) السابق نفسه ١/ ٣٥٦، ٣٥٧.

فقال معاوية بن أبي سفيان: لقد حضرت دعوته. ولقد رأيتني وإن أبا سفيان ليضجعني إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب، ولقد جذبني أبو سفيان جبذة فسقطت على ظهري فلم أزل أشكو السقطة زماناً.

ولقد أخافت دعوة خبيب أهل مكة خوفاً شديداً، ومن ذلك ما قاله جبير بن مطعم: لقد رأيتني يومئذ أتستر بالرجال فرقاً من أن أشرف لدعوته.

ويحكي أن عمر بن الخطاب استعمل سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي على حمص، وكانت تصيبه غشية وهو بين ظهراني أصحابه، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب، فسأله في قدمة قدم عليه من حمص فقال: ياسعيد، ما الذي يصيبك؟ أبك جنة؟ قال: لا والله ياأمير المؤمنين، ولكني كنت فيمن حضر خبيباً حين قتل وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس إلا غشي علي، قال: فزادته عند عمر خيراً.

* * *

هؤلاء ناس أحبوا الله
ورسوله حقا

كلنا نحب الله ورسوله. ما في ذلك شك، وكلنا نتصور أننا نحبهما إلى أقصى درجات الحب، ولكنك عندما تقرأ تفاصيل علاقات الأنصار مع رسول الله ﷺ يتضاءل حبك لرسول الله إلى جانب حبهم إياه، مهما تصورت أنك تحبه، ويزداد شعورك هذا عندما تتذكر أن هؤلاء كانوا في موقف الاختبار والامتحان الدائمين، لأنك إذا قلت إنك تفدى رسول الله بحياتك فهذا تصور، ولكنك لاتدري كيف يكون موقفك وتصرفك إذا كان عليك أن تختار بين حياتك وأي أذي يصيب رسول الله.

ورسول الله ﷺ نفسه كان يعرف ذلك، فأباح لنا أن نقول ما نريد إذا توقفت حياتنا على ذلك القول، وقد مر بك في هذه الدراسة خبر أو خبران في هذا المعنى، ولكن الأنصار افتدوا الرسول بأنفسهم فعلاً، بل أبعدوا أي أذى يصيبه وجادوا بأنفسهم في سبيل ذلك فعلاً، وإليك خبران يؤكدان لك هذا المعنى ويزيدان ما أريد قوله وضوحاً.

لقد حدثتك فيما مضى بحديث شهداء بئر معونة، وإليك خبر موت خبيب بن عدي أنقله لك عن الواقدي، وخبيب واحد من الاثنين اللذين أسرهما الأعراب يوم بئر معونة وباعوهما لأناس من أهل مكة من قريش ليقتلوهما ببعض من قتل في بدر من المشركين، والثاني – إذا كنت تذكر – هو زيد بن الدثنة، وسآخذ الحديث من ساعة أخذ الكفار خبيباً ليقتلوه.

قال محمد بن عمر الواقدي في كتاب المغازي: «فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة، ثم وجهوه إلى المدينة. وأوثقوه رباطاً، ثم قالوا: ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك! قال: لا والله، ما أحب أني رجعت عن الإسلام ولو أن لي مافي الأرض جميعاً! قالوا: فتحب أن محمداً في مكانك وأنت جالس في بيتك؟ قال: والله ما أحب أن يشاك محمد بشوكة وأنا جالس في بيتي! فجعلوا يقولون: ارجع ياخبيب!

قال: لا أرجع أبداً! قالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك! فقال: إن قتلي في الله لقليل! فلما أبي عليهم، وقد جعلوا وجهه من حيث جاء، قال: أما صرفكم وجهي عن القبلة فإن الله يقول: ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ (البقرة ٢/١١٥).

ثم قال: اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو: اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام عني، فبلغه عني السلام.

وقد قتله المشركون على صورة بالغة البشاعة: جاءوا بأبناء من قتلوا في بدر – ومعظمهم صبيان – وقالوا لهم: هذا الذي قتل آباعكم! ثم ناولوا الغلمان حراباً وأمسكوا بأيديهم وطعنوا خبيباً حتى مات، وقد عجب المشركون من حب أصحاب محمد ﷺ لمحمد وإخلاصهم لدينهم، وجعلوا يقولون: ما رأينا قط والداً يجد بولده (يحب ولده) ما يجد أصحاب محمد بمحمد.

وقد قتل زيد بن الدثنة في نفس اليوم الذي قتل فيه خبيب، وتقابل الرجلان وهما في طريق الموت، وأوصى كل منهما صاحبه ودعا له، ودعا المشركون زيداً للرجوع عن الإسلام ويطلقوه فأبي، وسألوه – كما سألوا صاحبه – إن كان يسره أن يكون محمد في أيديهم مكانه وهو في بيته، فقال: ما يسرني أن محمداً شيك بشوكة وأنا في بيتي، فقال أبو سفيان صخر بن حرب بهذه المناسبة: لاما رأينا أصحاب رجل قط أشد له حباً من أحصاب محمد لمحمد! وفي رثاء خبيب بن عدي يقول حسان بن ثابت:

لو كان في الدار قرم ذو محافظة

حامي الحقيقة ماضٍ حاله أنس

إذن حللت خـــبيباً منزلاً فُسُحاً

ولم يشد عليك الكــبل والحرسُ

ولم تقدك إلى التنـــعيم زعنفة

من المعاشـر ممن قد نفــت عُدَسُ

فاصبر خبيب فإن القتل مكرمة

إلى جنان نعيم ترجـــح النـــفس

دلوك غدراً وهـم فيها أولو خُلَفٍ

وأنت ضيف لهم في الدار محتبس

(القرم = السيد، وأصله الفحل من الإبل – أنس الأصم السلمي هو خال مطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف – فسح = واسع – الكبل = القيد الضخم – الزعنفة والزعانف هم أتباع القبائل، وأصل الزعنفة الأطراف والكارع التي تكون في الجلد – عدس يعني الأعشي بن زرارة بن الشباش الأسدي وكان حليفاً لبني نوفل بن عبد مناف – دلوك أي غروك ومنه قوله تعالى ﴿ فدلاهما بغرور﴾ [1] .

وإليك مثل سعد بن خيثمة، وهو مثل رائع من أمثلة التفاني في حب الإسلام ورسوله، وهو سعد بن خيثمة بن الحاثر بن كعب بن النخاط (أو الحناط) بن كعب ابن حارثة بن غنم بن السليم من الخزرج.

وقد شهد سعد بن خيثمة العقبة مع السبعين من الأنصار برواية ابن إسحاق وموسى بن عقبة ومحمد بن عمر الواقدي وعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري وهشام بن السائب الكلبي.

قالوا جميعاً: وكان سعد بن خيثمة أحد النقباء الإثنى عشر من الأنصار، ولما ندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى الخروج إلى عير قريش فأسرعوا. قال خيثمة ابن الحارث لابنه سعد أنه لابد لأحدنا من أن يقيم فآثرني بالخروج وأقم مع

---

(١) المغازي للواقدي: ١/ ٣٥٨ – ٣٦٣.

نسائك فأبى سعد وقال: لو كان غير الجنة آثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر فقتل يومئذ، قتله عمر بن عبد ود ويقال طعيمة بن عدي[1] . وهذا حديث ثابت بن أقرم، وهو من أبطال المسلمين وشهدائهم في حروب الردة في حرب بني طيء وبني أسد من المرتدين.

جاء في طبقات ابن سعد: خرج خالد بن الوليد يستعرض الناس في مقدمات اشتباك المسلمين ببني طيء وبني أسد في جبلي طيء وهما أجا وسلمي، يسميان اليوم جبال شمر شمال غربي القصيم من نجد، فكلما سمع أذاناً للوقت كف، وإذا لم يسمع أذاناً أغار، فلما دنا من القوم ببزاخة وهو موضع بمداخل منازل بني طيء في جبلهم بعث عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم طليعة أمامه يأتيانه بالخبر وكانا فارسين، عكاشة على فرس له يقال له الزرام، وثابت على فرس يقال له المحبر، فلقيا طليحة بن خويلد رأس المرتدين مْن بني طيئ وأخاه سلمة بن خويلد طليعة لمن وراءها من الناس فانفرد طليحة بعكاشة وسلمة بثابت بن أقرم فلم يلبث سلمة أن قتل ثابت بن أقرم، وصرخ طليحة بسلمة: أعني على الرجل فإنه قاتلي، فكر سلمة على عكاشة فقتلاه جميعاً.

وأقبل خالد بن الوليد معه المسلمون ، فلم يرعهم إلا ثابت بن أقرم قتيلاً تطؤه المطي، فعظم ذلك على المسلمين، ثم لم يسيروا إلا قليلاً حتى وجدوا عكاشة قتيلاً، ويروي المصدر بسنده عن أبي واقد الليثي قال: كنا نحن المقدمة مائتي فارس وعلينا زيد بن الخطاب، وكان ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن أمامنا، فلما مررنا بهما ساءنا ذلك، وخالد والمسلمون وراءنا فوقفنا عليهما حتى طلع خالد بن الوليد يسير فأمرنا فحفرنا لهما ودفناهما بثيابهما ودمائهما، ولقد وجدنا بعكاشة جرحات منكرة[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ / ٤٧ ، ٤٨ القسم الثاني.

(٢) السابق ٣ / ٣٦ ، ٣٧ القسم الثاني.

وقد أورد الأستاذ أحمد عادل كمال في كتابه القيم عن طليحة بن خويلد الأسدي تفاصيل قيمة عما جرى في هذه الحلقة من حلقات حروب الردة، ولماكنا لانعرف إلا القليل عن حروب الردة فقد رأيت أن آتيك بها لأنها كانت حروب أبطال صادقين أولاً، ثم لأن معظم هؤلاء الأبطال كانوا من الأنصار وسآتيك بعد بتفاصيل معركة اليمامة، وكان معظم أبطالها وشهدائها من الأنصار.

قال أحمد عادل كمال: فدارت المعركة (يريد معركة بزاخة) بين خالد بن الوليد وطليحة بن خويلد الأسدي، وكان جيش طليحة يزيد على جيش خالد بأكثر من ألف مقاتل، كان منهم سبعمائة من بني فزارة (من غطفان) بقيادة عيينة بن حصن، وكان طليحة (بن خويلد وكان اذ ذاك متنبئا مرتداً عن الإسلام يزعم لقومه وأتباعه أن جبريل ينزل عليه بوحي) متلفعاً في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبأ لهم والمعركة على أشدها، وقد شدد خالد ضغطه على جيش طليحة فدخل عيينه (بن حصن) على طليحة وسأله: هل جاء جبريل بعد؟ قال لا: فرجع عيينه يقاتل حتى إذا هزته الحرب عاد إلى طليحة جزعاً وقال له: لا أباً لك: أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا والله! قال عيينه: حتى متى؟ قد والله بلغ منا! ثم رجع فقاتل والدائرة تدور على المرتدين حتى إذا بلغ منه كر على طليحة فسألة هل جاءك جبريل بعد؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحا كرحاه وحديثا لاننساه، قال عيينة: أظن قد علم اللّٰه أنه سيكون حديث لا ننساه، ثم صاح في قومه: يابني فزارة، هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب. فانصرفوا، وانهزم جمعهم، وأقبل بنو أسد على طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟ وكان طليحة قد أعد فرساً عنده وهيأ بعيراً لامرأته النوار، فقام فوثب على فرسه وحمل امرأته فانطلق بها وهو يقول لقومه: من استطا ع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل: قاتلوا عن أحسابكم فأما دين فلا دين، ثم سلك طريقاً يقال لها الحوشية إلى الشام فنزل على بني كلب بالنقع، وفي رواية ابن الأثير أنه قام عند بني جفنة فانفض جمعه وانتهت حركته، وقتل من قومه عدد كبير، قال عبد الله بن عمر بن الخطاب،

وكان في جند خالد في بزاخة: نظرت إلى راية طلحة يومئذ حمراء يحملها رجل لايزول بها فتراً، فنظرت إلى خالد أتاه فحمل عليه فقتله. فكانت هزيمتهم، فنظرت إلى الراية تطؤها الخيل والإبل والرجال حتى تقطعت، ولقد رأيت خالداً يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى لِيَم في ذلك، ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشد القتال.. إن كان مكانه ليتقى حتى يطلع علينا منبهراً.

وكان المرتدون من بني عامر وقبائل من سليم وهوازن قريباً يرقبون ما يجري، فلما انهزم طليحة أقبلوا يقولون: ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم بحكمه في أموالنا وأنفسنا[١] .

وإليك حديث سهل بن حنيف وهو من بني حنش بن عوف بن عمرو بن عوف.

وبنو عمرو بن عوف من الخزرج كانوا يسكنون قباء، وكان في بعضهم انحراف عن الإسلام، يمثلهم رجل يسمى أبو عامر وكان يلقب بالراهب لأنه كان متألها أي يعبد الله، ولكنه كان فاسد النية، فلما جاء محمد رسول الله ﷺ إلى المدينة رفض أن يتبعه وعاداه وسماه المسلمون أبا عامر الفاسق، وكان لأبي عامر هذا دور سيء في موقعة أحد، وإن كان ابنه حنظلة الملقب بغسيل الملائكة قد استشهد فيها، وكان حنظلة من المؤمنين الصادقين.

وهذه الجماعة الفاسدة هي التي بنت مسجد الضرار وطلبت إلى رسول الله أن يصلي فيه فأبي ذلك وخرج إلى تبوك، وفي الطريق بعث نفراً من أصحابة ليهدموا مسجد الضرار على رأس من بنوه، ومن بين هؤلاء سهل بن حنيف هذا، ولهذا يقال عنه إنه كان من أهل المسجد.

وكان سهل بن حنيف من أهل العزة والشهامة والشجاعة، وقد آخي رسول الله بينه وبين علي بن أبي طالب، وقد استمرت الصحبة بين علي بن أبي طالب وسهل ابن حنيف إلى آخر أيامه.

---

(١) طليحة بن خويلد الأسدي ص ٣٧، ٣٨ للأستاذ أحمد عادل كمال دار نشر عكاظ الرياض ١٩٨١.

وقد شهد سهل بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وبعد الخندق قضي رسول الله على بني النضير بأخذ أموالهم، ولم يعط من هذه الأموال أحداً من الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة وكانا فقيرين.

وكان رسول الله ﷺ يحب سهل بن حنيف، وكذلك كان عمر بن الخطاب يحبه ويوقره، وكان يقول: ادعوا لي سهلاً غير حزن (يعني سهل بن حنيف) أما علي بن أبي طالب فقد كان سهل من أقرب أصحابه، وقد حضر معه صفين، وكان شديد الحماسة لعلي يتعجب من أمر من يختلفون معه ويحاربونه. وقد مات بالكوفة سنة ثمان وثلاثين، وصلى عليه عليّ.

* * *

ومن كبار أبطال الأنصار أبو عقيل وهو عبد الرحمن الأراشي الأنيفي، وينتهي نسبه إلى بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة فهو قضاعي ولكنه كان حليف بني جحجبا بن عقيل من الخزرج.

وكان اسمه قبل أن يدخل الإسلام عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن عدو الأوثان، وشهد أبوعقيل بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله واستشهد في معكرة اليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر وحديث استشهاده من أروع أخبار استشهاد الأنصار.

قال ابن سعد: «لما كان يوم اليمامة واصطف الناس للقتال كان أول الناس جرح أبا عقيل الأنصاري، رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل، وأخرج السهم ووهن له شقه (أي نصفه) الأيسر لما كان فيه – وهذا أول النهار – وجر إلى الرحل (أي إلى مؤخرة الميدان حيث الرحال والماشية والمتاع) فلما حمى القتال انهزم المسلمون وجاوزا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي يصيح بالأنصار: الله الله! الكرة على عدوكم! ومضى معن يقدم

القوم. وذلك حين صاحت الأنصار اخلصونا! أخلصونا! فأخلصوا رجلاً رجلاً يميزون، قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد باأبا عقيل؟ ما فيك قتال! قال: قد نوه المنادي باسمي، قال ابن عمر: إنما يقول: ياللأنصار لايعني الجرحى. قال أبو عقيل: أنا رجل من الأنصار، وأنا أجيبه ولو جبنوا! قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرداً. ثم جعل ينادي: ياللأنصار! كرة كيوم حنين!

فاجتمعوا رحمهم الله، يقدمون المسلمين دربة عدوهم حتى اقحموا عدوهم الحديقة (حديقة الموت حيث كان مسيلمة معتصماً) فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم، قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل. وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت إلى الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة، قال ابن عمر: فوقعت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: أبا عقيل! فقال لبيك بلسان ملتاث، لمن الدبرة؟ قلت: أبشر! ورفعت صوتي، قد قتل عدو الله فرفع أصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات رحمه الله، قال ابن عمر: فأخبرت عمر بعد أن قدمت خبره، فقال: رحمه الله! مازال يسأل الشهادة ويطلبها، وإنه كان ما علمت من خيار اصحاب نبينا وقديم إسلام[1] .

* * *

ومن أجمل أخبار الصحابة من الأنصار خبر عبد الله بن جبير. وهو من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف، واسمه امرؤ القيس بن ثعلبة بن عمر بن عوف. وهو واحد من كبار أبطال معركة أحد.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٤١، ٤٢ القسم الثاني.

وأنت لابد تذكر خبره عندما كان على رأس الرماة يوم أحد. وإليك خبره بالتفصيل برواية موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وأبي معشر ومحمد بن عمر الواقدي: وشهد عبد الله بدراً وأحداً واستعمله رسول الله يوم أحد على الرماة وهم خمسون رجلاً وأمرهم فوقفوا على تل عينين، وهو جبل جنوبي أحد شمالي شرقي المدينة، وأوعز إليهم: قوموا على مصافكم هذا، فاحموا ظهورنا، وأن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وذلك إن فرسان المشركين كانوا فوق المائتين، ولم يكن عند المسلمين إلا فارسان، والرماة على المرتفع يردون الفرسان بالنبل ولا شيء يخيف الفرس ويمنعه من الهجوم إلا السهم حول أذنيه، وقد ظل فرسان قريش معطلين مادام رماة المسلمين علي تل عينين فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا وينهبون عسكرهم ويأخذون الغنائم، قال بعض الرماة لبعض: ما تقيمون هنا في غير شيء؟ فقد هزم الله العدو فاغنموا مع إخوانكم.

وقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم: احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم؟ فقال الآخرون: لم يرد رسول الله ﷺ ذلك، وقد أذل الله العدو وهزمهم، فخطبهم أميرهم عبد الله بن جبير - وكان يومئيد معلماً بثياب بيض - أمرهم ألا يخالف لرسول الله أمر، فعصوا وانطلقوا.

فلم يبق مع عبد الله بن جبير إلا نفير ما يبلغون العشرة فيهم الحارث بن أسد ابن رافع، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل فكر بالخيل فتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من الرماة، ورمى عبد الله بن جـــبير حتى فنيت نبله فقاتلهم بسيفه حتى قتل، فلما وقع جردوه ومثلوا به أقبح التمثيل، وفتحوا بطنه حتى خرجت حشوته. رحمه الله رحمة واسعة(١) .

* * *

(١) السابق نفس الجزء والصفحة.

سعد بن عبادة شيخ الأنصار

قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ إلي المدينة، كان بيت سعد بن عبادة من أعز بيوت المدينة وأغناها وأكرمها، وهذا البيت هو بيت دليم بن حارثة بن أبي خزيمة ابن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، وكان مال آل دليم كثيراً ولكن سعد ابن عبادة هو الذي جمع ذلك المال، فقد نشأ طموحاً وكان يقول في مطالع شبابه: اللهم هب لي حمداً، وهب لي مجداً، لامجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم لايصلحني القليل ولا أصلح عليه.

وقد اجتهد في التجارة وجعل أهله يقبلون على الزرع واستصلاح الأراضي حتى كثرت حدائقه أي مزارعه ونخله وكرمه، وكثرت النوق والبقر والماشية عنده حتى صار بيت دليم من أغنى بيوت الخزرج.

وكان سعد وآله يعطون الناس من هذا المال في كرم بالغ، وقد فعل سعد وأبوه ونفر من آله بعد أن كثر المال في أيديهم، وكانوا يأمرون من ينادي على أطمهم (أي حصنهم) من أحب الشحم واللحم فليأت أطم دليم بن حارثه، وحدث هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: أدرك سعد بن عبادة وهو ينادي على أطمه: من أحب شحماً أو لحماً فليأت سعد بن عبادة ثم أدركت ابنه مثل ذلك يدعو به، ولقد كنت أمشي في طريق المدينة وأنا شاب فمر على عبد الله بن عمر منطلقاً إلى أرضه بالعالية فقال: يافتى تعال انظر هل ترى على أطم سعد بن عبادة أحداً ينادى فنظرت فقلت: لا. فقال صدقت (لأن سعد بن عبادة كان قد أنفق ماله كله على الإسلام قبل أن يهاجر إلى الشام في خلافة عمر بن الخطاب).

وكان سعد في الجاهلية يكتب بالعربية وكانت الكتابة في العرب قليلة، وكان يحسن العوم والرمي، وكان من أحسن ذلك سمى الكامل.. وكان سعد بن عبادة من الستة الذين كانوا أول من أسلموا في بيعة العقبة الأولى، وكان هو والمنذر بن

عمر وأبو دجانة لما أسلموا يكسرون أصنام قبيلتهم بني ساعدة وشهد سعد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثني عشر، فكان سيداً جواداً.

ولم يشهد سعد بن عبادة بدراً وكان يتهيأ للخروج إلى بدر وكان يأتي دور الأنصار يحضهم على الخروج فنهش قبل أن يخرج فأقام فقال رسول الله ﷺ: «لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً»، وروى بعضهم أن رسول الله ﷺ ضرب له بهسمه وأجره وليس ذلك بمجمع عليه، ولكنه قد شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وكان سعد لما قدم رسول الله ﷺ يبعث إليه في كل يوم جفنة فيها ثريد بلحم أو ثريد بلبن، أو ثريد بخل وزيت أو سمن، وأكثر ذلك اللحم فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه.

وكانت أمه عمرة بنت مسعود من المبايعات فتوفيت في المدينة ورسول الله ﷺ غائب في غزوة دومة الجندل وكانت في شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة وكان سعد بن عبادة معه في تلك الغزوة، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتى قبرها فصلى عليها وروى محمد بن عبد الله الأنصاري أن سعد بن عبادة قال لرسول الله ﷺ: إن أم سعد ماتت وإني أحب أن تصلي عليها فصلى عليها وقد أتى عليها شهر.

ومما يدلك على إنسانية محمد ﷺ وصدق إحساسه وعمقه هذا الخبر من حياة سعد بن عبادة حكى ابن سعد الخبر التالي: حدثنا همام بن قتادة عن سعيد بن الحسيب: أن سعداً أتى النبي ﷺ قال: إن أم سعد ماتت ولم توص فهل ينفعها أن أصدق عنها؟ قال: نعم.

قال: فأي الصدقة أحب إليك؟ قال: اسق الماء، فحفر سعد بئراً أو سقاية في صحن المسجد، وكان الناس يشربون منها، فهل رأيت أوفى إنسانية من هذا

النبي الكريم الذي وجد أن سقي الماء أعظم صدقة في بلد جاف قليل الماء مثل الحجازة في ذلك العصر؟ ومن الأخبار التي يرويها ابن سعد أيضاً: أخبرنا عمرو ابن عاصم قال: حدثنا سويد أبو حاتم صاحب الطعام قال: سمعت الحسن وسأله رجل أأشرب من ماء هذه السقاية التي في المسجد فإنها صدقه؟ فقال الحسن: قد شرب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من سقاية أم سعد. فمه. أي فاشـرب[1] .

* * *

وإذا أنت أردت أن تكتب عن سعد بن عبادة وتقدره قدره وتضعه في مكانه الحق من تاريخ الإسلام فلابد أن تقرأ السيرة النبوية كاملة، ولابد أن تكون هذه القراءة دقيقة مستأنية مع التفكير العميق فيما تقرأ وذلك لأسباب شتى أهمها اثنان:

الأول: هو أن مراجعنا الأصيلة ومختصراتها القديمة تبدو لك في ظاهرها متشابهة، وقد يبدو لك أن بعضها ينقل عن بعض، وهذا صحيح أحياناً، ولكن ما كتبه ابن إسحاق يختلف اختلافاً بيناً عما كتبه موسى بن عقبة وعما كتبه محمد ابن عمر الواقدي، وهؤلاء هم أقدم مراجع السيرة وأكثرها أصالة، ويلى هؤلاء محد بن سعد بن منيع كاتب الواقدي وعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري. وهو أحسن من كتب عن الأنصار ولكن كتابه لم يصل إلينا إلا عن طريق ابن سعد، ثم يأتي من بعد هؤلاء محمد بن هشام بن السائب الكلبي وهو حجتنا في الأنساب، ثم يجيئ بعد ذلك أبو معشر والبخاري ومسلم وبقية المحدثين ثم المؤرخون وأولهم محمد بن جرير الطبري، ويليه عز الدين بن الأثير الجزري ثم أبو الفداء.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٤٤ القسم الثاني.

وهذا قدر ضخم جداً من الكتب يحتاج إلى السنين، ولكنك إذا أردت أن تفهم السيرة فهما صحيحاً سليماً فلا بد أن تقرأ هذا كله.

والسبب الثاني هو أن السيرة هي حياة محمد صلوات الله عليه وما فعل وما قال وما فكر وكيف كان يفكر، وما عدا الوحي والرسالة والقرآن والشريعة سواء ما ورد منها في القرآن وما شرعه محمد من عنده إكمالاً للشريعة والمعاملات ما عدا ذلك فالسيرة لم يصنعها محمد وحده بل صنعها معه صحابته (وخصومه أيضاً) لأن محمداً عندما صنع صحابته اجتهد في أن يخرجوا من تحت يده رجالاً كاملين قادرين على صنع التاريخ على أصول الإسلام، وتركهم يشاركون في بناء صرح أمة الإسلام وجماعته كل على قدر طاقته وملكاته، وهو معهم يوجه ويصحح ويقومٌ ويقود، ومن فضائل رسول الله ﷺ أنه كان رجلاً حراً حقاً وهو لم يكن يرى أن الحرية حق له وحده بل للمسلمين جميعاً، وقد ربي الرسول أصحابه على الحرية في القول والعمل، ومن هنا فإن أصحاب رسول الله ﷺ والكبار منهم خاصة كان لهم نصيب كبير في صنع السيرة، ورجل مثل سعد بن عبادة كان منذ أسلم إلى جانب الرسول في كل حين وكان دائماً يقوم بدور إيجابي فعال سواء في تصرفه وصدقه وجوده بماله في كل حين دون حساب وسلامة قلبه للإسلام ورسول الإسلام وبقية المسلمين، أو باشتراكه في المغازي والسرايا وبسالته وبيعه نفسه من الله سبحانه في كل حين، ومن هنا فقد كان دائماً أبداً قدوة رفيعة للمسلمين ولو أتيح له لفعل أكثر مما فعل.

وكان سعد بن عبادة منذ عرفناه – وقد عرفناه شاباً في الثلاثينات الباكرة – شيخ بني ساعدة من كبار قبائل الخزرج، وبنو ساعدة كانت منازلهم شمال غربي سهل المدينة وعند مدخل المدينة ومخرجها الرئيسي فإن مدخل المدينة من الجنوب من ناحية قباء كان مدخلاً رملياً صخرياً عسيراً، فكان معظم الدخول إلى البلد من ناحية الشمال الغربي من ناحية مجتمع الأسيال وزغابة فيدخل الإنسان من بين الحرتين أو اللابتين ماراً بالثنية الشمالية ثم ثنية الودا ع ثم منازل بني ساعده،

فكان الرسول والمسلمون غالباً ما يمرون بمنازل بني ساعدة في خروجهم ودخولهم، ومن ثم فقد كان رسول الله يمر في الغالب بمنازل بني ساعدة وكان سعد بن عبادة رجلاً واسع الثراء فكان لايزال يزود الرسول بالزاد والماء حتى إذا لم يكن هو خارجاً في الغزاة أو السرية وكان الرجل حريصاً دائماً على أن يكون مع الرسول ومع المسلمين وكان منذ أسلم قد وهب نفسه للإسلام ورسوله. فكثر لذلك ذكره وتعددت أخباره في السيرة، لا لأنه كان من زعماء الأنصار المرموقين فحسب، بل لأنه كان دائم المشاركة في الأحداث، بل كان دائم الجود بهداياه ومعاوناته للمسلمين بالطعام والسلاح وكان لابد لي لذلك من أن أقرأ السيرة والمغازي كلها، وأتخير المهم من أخبار سعد لأورده، وإلا طال البحث وتجاوز المطلوب!

وقد شهد سعد بن عبادة أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ واحتسبه الرسول في البدريين وإن لم يخرج فيها ولكنه كن قد نهش، واستخلفه رسول الله على المدينة عندما خرج إلى بواط في أولى غزواته، وكان سعد بن عبادة في القلة التي رغبت في الخروج من المدينة للقاء العدو يوم أحد وكان رأيه يومذاك حسناً وصائباً.

وفي يوم أحد وفي الدور الثاني من المعركة وهو الدور الذي انهزم فيه المسلمون نتيجة لتخلى الرماة عن موقعهم على جبل عينين طلباً للغنيمة نجد سعد بن عبادة في موقف من مواقف الجهاد الكبرى لأن رسول الله ثبت مكانه لايريم، والقرشيون انتابهم جنون البحث عن الرسول ليقتلوه، ولكنه لايتحرك وإنهم ليحيطون به وهو يرميهم بنبله أو بالحجارة، ويستشهد تحت بصره مصعب بن عمير صاحب لواء المسلمين، ووقع اللواء فنادى رسول الله أصحاب الألوية ومنهم سعد بن عبادة صاحب راية الخزرج وأسيد بن الحضير صاحب راية الأوس وإنهما لثابتان مع الرسول محدقان به ويشير الرسول فيأخذ راية المهاجرين أبو الروم العبدري (أي من بني عبد الدار)، وكانت في نفس الوقت لواء الجيش كله فيثبت بها إلى نهاية

المعركة، وأحاط برسول الله أربعة عشر بطلاً من أبطال المسلمين منهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار فيهم سعد بن عبادة، ولسان حالهم جميعاً يقول كما قال يعقوب بن عمرو بن قتادة: وجهي دون وجهك ونفسي دون نفسك وعليك السلام غير مودع – بتشديد الدال وفتحها[1] .

ولم يزل سعد بن عبادة مع الرسول طول اليوم، وكان الرسول قد جرح في وجنتيه جرحين كبيرين، وشجت جبهته شجاً بالغاً سال منها دم كثير، ولم يرقأ الدم إلا بعد أن عاد الرسول إلى بيته في المدينة، وكانت فاطمة الزهراء هي التي داوت ذلك الجرح، أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صارت رماداً ثم ألصقتها بالجرح فاستمسك الدم، ويقال إنها داوته بصوفة محترقة، وداوى رسول الله الجرح بعد بعظم بال يدقه حتى يصير كالتراب، ثم يضعه على موضع الجرح حتى ذهب أثره، وكان رسول الله قد أصابته ضربة أليمة على عاتقه ثم وقع في حفرة كان قد حفرها أبو عامر الفاسق، فجشمت ركبتاه، وكان ذلك من عظيم صنع الله معه، لأن ابن قمبعة وكان من جهابزة الكفار، قد وصل إلى محمد ﷺ وعلاه بالسيف فلما وقع رسول الله في الحفرة طاش السيف ولم يصب رسول الله إلا وهن الضربة بثقل السيف، وثاب الناس إلى رسول الله يخرجونه من الحفرة وقد جمشت ركبتاه وسال منهما الدم، واحتضنه طلحة بن عبيد الله ونهض به من الحفرة فاستوى قائماً، ثم جاء سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فتوكأ عليهما رسول الله حتى دخل بيته وهو يحس الوهن في ركبته[2] وقد ظل رسول الله ﷺ يحس هذا الوهن أو الضعف طوال الليل، وفي اليوم التالي خرج في غزوة حمراء الأسد وهو يشكو من ركبتيه، وظل يعاني منهما أياماً بل أسابيع بعد ذلك.

---

(١) المغازي للواقدي: ١/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) السابق ١/ ٢٤٢ – ٢٤٤.

ولا نكاد نرى عملاً قام به رسول الله ﷺ إلا وجدنا سعد بن عبادة معه قائماً بدور مشكور، ومثل سعد في هذا مثل كبار الصحابة، لأن رسول الله عرف كيف ينشيء الصحابة من حوله على مثال الإسلام، وكان هو القدوة الصالحة في ذلك، وأصبح الصحابة قادة يسيرون بالدعوة في الطريق الذي رسمه رسول الله، وبفضل أولئك الصحابة سارت الرسالة في طريقها رغم قلة المال والوسائل وكثرة المصاعب، ولكن الصحابة كانوا يبذلون أقصى ما يستطيعون، وما بذل إنسان أقصى ما استطاع إلا عز وانتصر، والأنصار بالذات نذروا أنفسهم للإسلام وأصبحوا هم الدعوة تحقق نفسها، وانظر هنا إلى سعد بن عبادة بعد الذي فعله يوم أحد ثم في حمراء الأسد فإن الرسول ﷺ عندما عاد إلى المدينة وهو جريح واهن ولكنه آمن على المدنية من كرة تكون من المشركين، أمر بالمسير إلى بني النضير؛ فإن بني النضير خانوا الرسول وأبوا معاونة المسلمين، ثم حاربوا المسلمين بعد ذلك وآذوا الرسول بالكلام القبيح فسار إليهم وسار معه المسلمون، وهنا نجد سعد بن عبادة يرسل إلى محمد ﷺ قبة (أي خيمة) من نوع من النبات قوي يقاوم السهام، فضربها الرسول في الفضاء المجاور لمنازل بني خطمة من الشرق تجاه منازل بني النضير ويرمى رام من اليهود بسهم يصيب أعلى القبة، فينقلها الرسول إلى مكان أبعد لاتصل إليه النبال، وظل هناك حتى انهزم بنو النضير وطردوا من المدينة، ومن طريف ما يروى أن علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه عز عليه أن يرمى يهودي سهماً يصيب فيه الرسول، وكان اسم هذا اليهودي عزوك، فمضى وتربص له حتى خرج من حصنه لقتال المسلمين، فسار إليه علي ومعه أبو دجانة وسهل بن حنيف في عشرة من الأنصار فقتله مع أصحابه، والحقيقة التي أحب أن تراها هنا هي كيف أن أولئك الصحابة كانوا يعملون معاً دون اتفاق بينهم على ذلك، ولكن كلاً منهم كان ينفذ قطعة من الخطة التي تؤدى في النهاية إلى نصر الإسلام على الطريق الذي أراده الرسول دون أمر منه إلى أحد منهم بأن يعمل هذا أو ذاك أو لا يعمله، وتلك أعلى درجات التربية

الروحية والتكوين الإنسـاني، وقد وفق فيها رسـول الله ﷺ إلى أعلى درجات التوفيـق ..

وإليك برهاناً على هذه الروح من تفاني الأنصار في سبيل الإسلام فإن رسول الله ﷺ بعد أن خرج بنو النضير من المدينة صارت أرضهم ودورهم ونخلهم وزروعهم خالصة لرسول الله يتصرف فيها كما يشاء، فاستدعى الأنصار وتكلم فأشار إلى نزول المهاجرين على الأنصار في بيوتهم وأموالهم، وقال: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله على من بني النضير، وكان المهاجرون فيما هم عليه من السكنى في مساكنهم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يارسول الله، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يارسول الله! قال رسول الله ﷺ : اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار!

ولم يأخذ أحد من الأنصار شيئاً من هذا المال إلا سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة فقد كانا فقيرين، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفاً له ذكر عندهم[1] .

ومن جميل أخبار سعد بن عبادة ماكان منه في حديث الإفك فإن حسان بن ثابت كان قد أوضع في حق عائشة رضي الله عنها واتهم صفوان بن المعطل وآذاه بلسانه وشعره، فذهب صفوان إليه وضربه في نادي قومه وأمسك به آل حسان، وبلغ الأمر رسول الله فقال لهم: احبسوا صفوان عندكم فإذا مات حسان (من أثر ضرب صفوان إياه) فاقتلوه به، فبلغ الأمر سعد بن عبادة فذهب إلى قومه في الخزرج ولامهم علي مافعلوه، فقالوا له: إن رسول الله أمرنا بحبسه وقال: إن مات صاحبكم فاقتلوه، قال سعد: والله إن أحب إلى رسول الله للعفو، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان.

---

(١) نفس المصدر ٢ / ٣٧٨ ، ٣٧٩.

ووالله لا أبرح حتى يطلق! فقال حسان: ما كان لي من حق فهو لك ياأبا ثابت، وأبي قومه. فغضب قيس ابنه (ابن سعد بن عبادة) غضباً شديداً، فقال: عجباً لكم، ما رأيت كاليوم! إن حسان قد ترك حقه وتأبون أنتم! ما ظننت أن أحداً من الخزرج يرد أبا ثابت في أمر يهواه، فاستحيا القوم وأطلقوه من الوثائق، فذهب به سعد إلي بيته فكساه حلية، ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلى فيه، فرآه رسول الله ﷺ فقال صفوان؟ قالوا: نعم يارسول الله، قال: من كساه؟ قالوا: سعد بن عبادة، فقال: كساه الله من حلل الجنة! ثم كلم سعد بن عبادة حسان بن ثابت فقال: لا أكلمك أبداً حتى تذهب إلى رسول الله فتقول: كل حق لي قِبَلَ صفوان فهو لك يارسول الله، فأقبل حسان في قومه حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله كل حق لي قِبَلَ صفوان بن معطل فهو لك، قال: قد أحسنت وقبلت ذلك، فأعطاه رسول الله أرضاً براحاً، وهي بيرحاء وما حولها وسيرين، وأعطاه سعد بن عبادة حائطاً (حديقة) كان يجد (يعطى) مالاً كثيراً عوضاً له عما عفا من حقه(١) .

فانظر والله كيف كان هؤلاء الناس – جميعهم يتصرفون على نحو هو الكمال بعينه، وهذه واحدة من ثمرات تربية الرسول، وهذه هي العبرة التي أريد أن أخرج بها من هذه الدراسة، عبرة القدوة التي ضربها رسول الله لصحابته وهداهم الله بفضله إلى اتباعها فكانوا خير الناس، وأنت ترى هنا كيف كان سعد بن عبادة مسلماً وسيداً كريماً وعاقلاً في كل تصرف من تصرفاته، وفي كل كلمة يقولها، ولم يكن سعد فريداً في بابه في ذلك، بل كان كذلك كبار الصحابة، كل ذلك والرسول يربى على مهل ويضرب المثل في سكون وعفوية، وسترى أمثله أخرى من ذلك فيما بقى من حديث سعد بن عبادة وغيره من الأنصار.

* * *

---

(١) نفس المصدر: ٢ / ٤٣٦ ، ٤٣٨ .

سعد بن عبادة
ومثـــال المســلم الحـــق

ومن أبلغ ما يصور لك إيمان سعد بن عبادة – وسعد بن معاذ معه – وثقتهما في نفسيهما وفي قوة الإسلام، هذا الخبر الذي ترويه كل كتب السيرة، ولكني آتيك به برواية الواقدي، فهي أكثرها تفصيلاً. ذلك أن رسول الله عندما أخذ الأحزاب يتجمعون للمسير إلى المدينة أحب أن يعرف حقيقة موقف الأنصار في ذلك الظرف العصيب، فقد كانت قريش قد جمعت أربعة آلاف مقاتل فيهم ثلاثمائة فارس وألف بعير، وأقبلت معها بنو سليم بن منصور في سبعمائة مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية، وخرجت بنو أسد يقودها طليحة بن خويلد، وانضم إلى الأحزاب عيينة بن حصن سيد فزارة من غطفان ومعه ألف مقاتل، وخرجت أشجع في أربعمائة مقاتل يقودهم مسعود بن رُخيلة، وخرج بن مرة في أربعمائة مقاتل يقودها الحارث بن عوف، هذا غير قوات أخرى أقل عدداً وأهمية.

وإلى ذلك الحين لم تكن جزيرة العرب قد عرفت قوة عسكرية بهذا الحجم، فأراد رسول الله ﷺ أن يتعرف على حقيقة موقف الأنصار، فأرسل إلى عيينة بن حصن سيد فزارة وغطفان واستدعاه، وعرض عليه ثلث تمر المدينة تلك السنة إذا هو انصرف بقوته، وكان من المؤكد أن بني فزارة إذا انصرفوا انصرف معهم معظم البدو الآخرين، ولم يبق أمام المسلمين إلا قريش وناس قليلون، ثم إن ثلث التمور للبدو لكي يكفوا عن أعمال العداء لم يكن بالكثير، لأن غطفان هذه كانت تأخذ من خيبر وفدك نصف تمورها كل سنة حتى تأمن على نفسها وعلى قوافلها.

ولكن عيينة بن حصن عندما رأى رأي الرسول ﷺ يعرض عليه ذلك أبى إلا أن يأخذ النصف. فلما بلغ الأمر هذا المبلغ بعث رسول الله إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رئيسي الأوس والخزرج ليستشيرهما في الأمر، وكان حصار

الأعداء للمدينة قد طال واشتد القتال، وكان لابد أن يعرف الرسول رأي الأوس والخزرج، ودعا رسول الله كذلك أسيد بن الحضير وعثمان بن عفان ليكتب الصلح إذا كان هناك صلح. وكان رسول الله جالساً عندما وفدوا عليه وعباد بن بشر قائم على رأسه مقنع بالحديد وبيده السيف.

قال الواقدي: «فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ ولا يدري لمن كان الكلام. فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وجد عيينة ماداً رجليه بين يدي رسول الله ﷺ وعلم ما يريدون، فقال: يا عين الهجرس (بكسر الهاء والراء وهو ابن الثعلب أو القرد) اقبض رجلي؛!.. أتمد رجليك بين يدي رسول الله؟ ومعه الرمح، والله لولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح! ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف! متى طمعوا بهذا منا؟ فأسكت (يعني سكت) رسول الله ﷺ .

ودعا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فاستشارهما في ذلك وهو متكئ عليهما، والقوم جلوس فتكلم بكلام يخفيه، وأخبرهما بما قد أراد من الصلح، فقالا: إن كان هذا أراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فامض لما كان لك فيه هوى، فسمعاً وطاعة. وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف. وأخذ سعد بن معاذ الكتاب. فقال رسول الله ﷺ : «إني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فقلت: أرضيهم ولا أقاتلهم». فقالا: يا رسول الله .. إن كانوا ليأكلوا العلهز (شيء كانوا يأكلونه في سنى المجاعة، وهو دم مخلوط بوبر الإبل ثم يشوى على النار) في الجاهلية من الجهد، ما طمعوا بهذا منا قط أن يأخذوا تمرة إلا بشرى أو قرى، فحين أتانا اللهتعالى بك وأكرمنا بك وهدانا بك، نعطي الدنية! لا نعطيهم أبداً إلا السيف! فقال رسول الله ﷺ : شق الكتاب» فتفل فيه سعد ثم شقه وقال: بيننا السيف! فقام عيينة وهو يقول: أما والله للتي تركتم خير لكم من الخطة التي أخذتم، وما لكم بالقوم طاقة، فقال عباد بن بشر: يا عيينة، أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع. وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك

لتأكلون العلهز والرمة من الجهد، فتأتون هاهنا ما تطمعون بهذا منا إلا قرى أو شرى، ونحن لا نعبد شيئاً. فلما هدانا الله وهدانا بمحمد ﷺ سألتمونا هذه الخطة؟ أما والله لولا مكان رسول الله ما وصلتم إلى قومكم، فقال النبي: ارجعوا بيننا السيف! رافعاً صوته. فرجع عيينة والحارث وهما يقولان: والله ما نرى أن ندرك منهم شيئاً، ولقد أَنْهِجَتْ للقوم بصائرهم، والله ما حضرت إلا كرهاً لقوم غلبوني، وما مقامنا بشيء مع أن قريشاً لو علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها، قال عيينة هو والله ذلك! قال الحارث: أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد، والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب، مع أني أرى أمر محمد أمراً ظاهراً .. قال عيينة إنا والله ما جئنا ننصر قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة، فيكون لنا به ذكر مع ما في ذلك من منفعة الغنيمة، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود، فهم جلبونا إلى ما هاهنا، قال الحارث: قد الله أبت الأوس والخزرج إلا السيف والله ليقاتلن عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم، وقد أجدب الجانب وهلك الخف والكراع، قال عيينة لا شيء! فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا: ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر، رأينا قوماً على بصيرة وبذل من أنفسهم دون صاحبهم، وقد هلكنا وهلكت قريش وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً، وإنما يقع حر محمد ببني قريظة، إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعه حتى يعطوا بأيديهم. قال الحارث: بعداً وسحقاً محمد أحب إلينا من اليهود»[1] وإنما أتيت بهذه القطعة الطويلة من مغازي *الواقدي* ليرى القارئ بعد نظر محمد وإنسانيته فهو لم يشأ أن يحمل الأوس والخزرج فوق ما يطيقون، عندما رأى تجمع هؤلاء الأعداء الكثيرين عليهم، فلما وجد أنهم لا يكترثون لهؤلاء الأعداء الكثيرين عليهم، فلما وجد أنهم لا يكترثون لهؤلاء الأعداء

---

(١) المغازي *للواقدي* ٢ / ٤٧٧ ، ٤٨٠.

وأنهم يشعرون أنهم أقوى منهم وأعز بالإسلام تركهم وما اختاروا، وصارت قلوبهم بعد ذلك كالحديد، ولم يعد هناك شك في أنهم سيخذلون أعداءهم جميعاً بفضل إيمانهم بالله والإسلام ورسوله، ثم إن هذه القطعة تكشف لنا من حقائق الأحوال في الجزيرة أيام نهوض الإسلام شيئاً كثيراً جداً لا يتسع المجال لتفصيله هاهنا، وقد فصلت جوانب منه في كتابي عن تاريخ قريش.

وعندما انهزم الأحزاب وانصرفوا ورجعت قريش إلى مكة خائبة المسعى أسرع رسول الله إلى بني قريظة ليصفي حساب الإسلام معهم، فقد خانوا المسلمين وأوقفوهم موقفاً خطراً ولم يعد هناك مفر من الخلاص منهم، فمضى هو ومن أراد المسير من المسلمين، وفي مقدمة من سار سعد بن عبادة وحاصر رسول الله اليهود، ووقف المسلمون يرمونهم بالنبل والحجارة، فلما جاء الليل أمر رسول الله المسلمين بالعودة إلى منازلهم مع استمرار الحصار قال الواقدي راوياً عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها: فعسكرنا وبتنا، وكان طعامنا تمراً، بعث به سعد بن عبادة أحمال تمر، فبتنا نأكل منها، ولقد رئي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يأكلون من ذلك التمر ورسول الله يقول: نعم الطعام[1] . وبعد أن انتهى أمر بني قريظة واستسلموا وحكم فيهم سعد بن معاذ بما ذكرنا فرق ﷺ الغنيمة على حكم الإسلام، وصار إليه ﷺ بسهم الله وهو الخمس فمضى يبيعه لينفق ثمنه في مصالح المسلمين، قال الواقدي بسندهّ لما سبى من بني قريظة النساء والذرية باع رسول الله ﷺ منهم من عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف طائفة وبعث طائفة إلى نجد وبعث طائفة إلى الشام مع سعد بن عبادة يبيعهم ويشترى بهم سلاحاً وخيلاً، ويقال باعهم بيعاً من عثمان بن عفان[2] وهكذا ترى أن سعد بن عبادة لم يبع ولم يشتر وإنما هو ذهب ببعض الغنيمة إلى الشام ليشترى خيلاً وسلاحاً للمسلمين، ونحن نعرف أن خيل المسلمين كانت قليلة إلى ذلك الحين، فأراد رسول الله ﷺ أن تكون للمسلمين قوة من الخيل والسلاح،

---

(١) المصدر السابق ٢/٥٠١.
(٢) المصدر السابق ٢/٥٢٣.

وتلك الخيل هي التي أطلقها في الأحماء فكثرت ولم يعد المسلمون يشكون من قلة الخيل أو ندرة السلاح، أما عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فاشتريا من خمس الله ورسوله شيئاً كثيراً لكي يحصلوا على فديتهم من أهاليهم فيما بعد، فكان عثمان – ذكاء منه – يتحرى شراء العجائز لأنه يعرف أن فدية المرأة العجوز من أهلها أكبر من فدية المرأة الشابة، وجعل عثمان على كل من جاء من سبيهم شيأ موفياً (أي كبيراً) فكان يوجد عند العجائز كالمال ولايوجد عند الشواب فربح عثمان مالاً كثيراً، وهكذا ربح الكل المال الكثير، أما سعد بن عبادة فقد قنع بالذهاب إلى الشام ليبيع ما أعطاه رسول الله من السبي والذرية ويشترى بثمنه خيلاً وسلاحاً للمسلمين.

ومن أمتع غزوات الرسول غزوة الغابة، وكانت في ربيع الأول سنة ست للهجرة وهي الرابعة والثاثون من مغازي رسول الله وسراياه وكانت بعد الخندق بعام إلا شهوراً، ووجه المتعة فيها أن الغالبية العظمى ممن خرج مع رسول الله كانوا من الأنصار، ونحن نحس فيها كيف كان هؤلاء الأنصار يحسون السعادة الكبرى في أن يكونوا مع رسول الله ﷺ فهم معه وبين يديه يروحون ويغدون ويتنافسون في الشهامة والبسالة والإخلاص للإسلام ورسوله، ورسول الله بينهم يتحرك في ثقة ويتكلم في حكمة ويتصرف عن إنسانية بالغة، والغزوة كلها تبدو لك كأنها نزهة عائلة واحدة متماسكة متحابة مع أنها عمل عسكري حافل بالأخطار.

وغزوة الغابة من صغار المغازي أي أنها ليست معلماً من معالم السيرة مثل بدر وأحد والخندق ولا هي تعين مرحلة من مراحل تطور أمة المدينة، ولكنها غزوة تأمين، وأمثالها كثير في السيرة النبوية، وذلك أن المدينة كانت قد نمت وكبرت واغتنت وازداد طمع من حولها من الأعراب فيها، وخاصة أعاريب نجد وأكبرهم غطفان، وكان شيخ غطفان بدوياً جامد القلب مستحيل الإيمان بالإسلام أو بغيره وكان رسول الله ﷺ يستطيع أن يقضي عليه في أي وقت يشاء، ولكنه كان يعلم أن قومه من فزارة من غطفان كانوا متعلقين به يحسبونه شيئاً مع أنه لم يكن

بشيء، وإذا عاقبه الرسول فربما عظم في نظر أتباعه وكان يسمى بالأحمق المطاع، فتركه رسول الله ﷺ نظراً لمن خلفه من الأعراب، فإن عيينة بن حصن زائل ولكن فزارة وغطفان باقيتنان والإسلام باق وطال الزمن أو قصر فإن مصير غطفان وكل العرب للإسلام، فلماذا العجلة؟! ولماذا يعطى الرجل فوق قدره؟ لقد تركه رسول الله حتى دخلت غطفان كلها في الإسلام وعيينة في ذيلها، وقال الناس يومئذ: إنه لم يصبح الأحمق المطاع وإنما الأحمق فحسب.

وقد دبر عيينة أن يغير ذات ليلة على إبل لعبد الرحمن بن عوف كانت ترعى وتنام في مرعي مجاور لحمى كانت ترعى فيه ماشية الرسول يسمى الغابة، وكان أبو ذر الغفاري قد أستأذن الرسول في أن يبيت مع ابنه وأهله في الغابة يحرس لقاح رسول الله ﷺ أي إبله فحذره الرسول من ذلك لأن تلك الضاحية شمالي شرقي المدينة كانت مجاورة لطرف من أطراف منازل فزارة قبيلة عيينة بن حصن، ولكن أبا ذر أصر فتركه رسول الله ﷺ .

وأخطأت غازية الأعاريب فاغارت على لقاح رسول الله بدلاً من لقاح عبد الرحمن بن عوف فأصابت عشرين لقحة أي ناقة وفرت بها وكان ذلك في الفجر وكان سلمة بن الأكوع – من بني أسلم بن أفعى بن عامر – معتاداً على أن يخرج في الفجر إلى تلك اللقاح ليحمل من لبنها إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأي ما حدث كر إلى المدينة لكي يحمل النبأ ويستصرخ رسول الله، فوقف على ثنية الوداع، وصاح: الفزع الفزع. وكأنما كان رسول الله يتوقع ذلك. وهذا هو يقبل على سلمة مقنعاً بالحديد، وما كان الرسول ليترك أمراً كهذا يمر فقرر أن يسرع في أعقاب هؤلاء المغيرين حتى يروا أنه ليس من السهل أن يغار على المدينة أو شيء لها، ولحق بالرسول المقداد بن عمرو وهو من بهراء من الحاف بن قضاعة وكان حليفاً للأسود بن عبد يغوث بن وهب خال رسول الله في مكة، ولهذا كان يسمى أيضاً المقداد بن الأسود، وقد أسلم في مكة وهاجر إلى المدينة وكان له فيها شأن، فلما رآه الرسول عقد له لواء وقال: امض حتى تلحقك الخيل، فعدا

بحصانه في أثر القوم ولحق به المسلمون وفيهم سلمة بن الأكوع، وكان سلمة عداء فريداً في بابه حتى كان يسبق الخيل، وأدرك سلمة اللصوص وناوشهم فكانوا يرمونه فيداورهم، وكل غرضه أن يوخرهم حتى يلحق به المسلمون. وأدركه رسول الله ﷺ ونفر من المسلمين فاستنقذوا عشرة من اللقاح، وطلب سلمة من الرسول مدداً ليدرك بقية القوم ويستنقذ بقية اللقاح، ولكن رسول الله يبتسم ويقول له: ملكت فأسجح، أي قدرت فاعف، أي أنه كان يرى أن يكتفي المسلمون بذلك، فقد استنقذوا نصف المسروق وأرهبوا اللصوص، وهم بعد قليل سيقتلون ابنا لعيينة، وهذا يكفي، ولكن المسلمين لم يروا أن هذا يكفي، فهاهم أولاء يتلاحقون برسول الله ﷺ ويجرون في إثر القوم بالخيل ويقتلون منهم ويظهرون من ضروب البسالة والإخلاص ما يطرب رسول الله، وكلما فعل واحد منهم شيئاً عاد إلى رسول الله ليبلغه الخبر، وهنا ترى كيف كان الأنصار أنصار الله ورسوله حقاً، فقد كانوا يأتون من ضروب البسالة ما يملأ القلب مسرة، وكان رسول الله يطلب إلى الواحد منهم أن يكف عن الحرب والمخاطرة فإن الأمر بلغ غايته ولا حاجة لمزيد، فيأبى الأنصاري ويزداد حماسة وطلباً للموت والشهادة، وبودي لو قرأت خبر هذه الغزوة عند الواقدي (ج٢/ ٥٣٧ وما بعدها) لترى رسول الله ﷺ عن كثب جداً، ففي مثل هذه الغزوة، يكون رسول الله قريباً جداً من أصحابه وتنطلق نفسه على سجيتها حقاً، وهنا يزداد حبك لرسول الله وتقديراً لخصاله وخصائصه التي ميزه الله بها .

ومن أكثر المناسبات دلالة على مكانة سعد بن عبادة وابنه قيس من رسول الله ﷺ سرية الخبط إلى ناحية تسمى ذا القصة في بلاد جهينة على ساحل البحر الأحمر، وكان أميرها أبو عبيدة عامر بن الجراح وقد اشترك فيها ثلاثمائة رجل معظمهم من الأنصار وفيهم قيس بن سعد بن عبادة. وأقلهم من المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب.

وقد كانت هذه السرية في ربيع الآخر سنة ست للهجرة، وكان هدفها الرئيسي

هو التوثق من أمر جهينة، وجهينة كانت سلماً وأمناً للمسلمين، ولكنها كانت قبيلة قضاعية كبيرة تمتد بلادها من شمالي تيما إلى ينبع، فكان رسول الله حريصاً على أن تستمر صداقتها لأمة الإسلام، فكان لا يزال يخرج إلى منازلها ويرسل السرايا لكي يطمئن قلبه من هذه الناحية، وقد كانت السرية في زمان محل، فلم يكن عند المسلمين مزيد مال أو زاد، وخرج معظمهم راجلين بسبب قلة العلف، فلما أوغلوا في السير اشتد بهم الجوع فأخذوا يأكلون الخبط، وهو الورق الساقط من الشجر، وهو من علف الإبل، فسموا لذلك جيش الخبط.

واشتد الجوع بالمسلمين وخيف عليهم الجهد فتحرك قيس بن سعد بن عبادة لغوث إخوانه فجعل يقول: من يشتري مني تمراً بجزر (أي: بإبل تصلح للأكل) يوفيني الجزر هاهنا، وأوفيه التمر في المدينة؟ فأنكر عمر بن الخطاب ذلك، وجعل يقول: واعجباه لذلك الغلام لا مال له، يدان في مال غيره! وكان قيس إذ ذاك شاباً بعد العشرين، وكان أبوه سعد بن عبادة ذا مال كثير، ولكنه هو لا يملك مالاً، وأبوه لم يفوضه في أن يستدين على مال أبيه، فهذا ما أنكره عمر.

ووجد قيس بن عبادة رجلاً من جهينة مستعداً لإعطائه الجزر وخاصة بعد أن عرف أن قيساً هو ابن سعد بن عبادة رأس بيت دليم وسيد الخزرج، وكان الاتفاق على أن تكون كل جزور بوسقين من تمر جاف (أي من نوع ما نسميه نحن البلح الأبريمي) وتمت الصفقة، وأخذ قيس خمس جزر فرقها في المسلمين، فكانوا يذبحون كل يوم واحدة، فأكلوا ثلاثة وزال عنهم الجهد وبقيت اثنتان، كل ذلك وعمر يحتج ويطلب إلى أبي عبيدة أن يأمره بالتوقف، وجرت بين عمر وقيس بهذه المناسبة مشادة.

وكان المسلمون قد بلغوا ساحل البحر فعثروا على حوت عظيم ألقى به الموج على الساحل فاستغنوا بلحمه عن الجزر، وكان حوتاً عظيم الحجم تتسع فتحة عينه وحدها لدخول الرجل. وعاد المسلمون إلى المدينة، وبلغ سعد بن عبادة الخبر فأيد ابنه فيما فعل، وأخذ الدين على نفسه، وأعطى ابنه خمس حوائط نخل أي

بساتين يؤتي أصغرها خمسين وسق تمر في العام، والوسق حمل جانب مما يحمل البعير، فهو يحمل وسقين، وقد أعجب هذا التصرف وغيره من سعد بن عبادة وابنه رسول الله ﷺ فقال: نعم الرجل سعد بن عبادة! وقال في مناسبة أخرى: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام مشيراً إلى سعد بن عبادة.

ولن نطيل هنا الحديث عما كان بين سعد بن عبادة، وأبي بكر وعمر يوم السقيفة، فهو معروف مشهور، ولكننا نقول هنا إنه كان اختلاف رأي، واختلاف الرأي مطلوب، وكان لابد أن يحدث، وعلى أي حال فقد انتهى الأمر بالإجماع على خلافة أبي بكر، وكان هذا فضلاً من الله على المسلمين ورحمة.



مسك الختام:
شـــعراء الرســـــول

ما كان رسول الله ﷺ في حاجة إلى شعراء مداحين، فقد كان يتنزل عليه القرآن وهو أبلغ وأجمل ما عرف الناس من شعر أو نثر، وكان هو نفسه ذا بلاغة رفيعة تصوغ أرفع المعاني في أجمل أسلوب، والقرآن من ناحية، وحديث رسول الله من ناحية يبدآن في تاريخ الأدب العربي عصراً جديداً ينتهي معه عصر المعلقات والشعر الجاهلي كله الذي يقوم أساساً على اللفظ البليغ والصياغة المتقنة والمبالغة والإسراف في التخيل، حتى تبعد الصلة بين الشعر والواقع.

إن شعر امرئ القيس بن حجر الكندي – وربما كان أقرب هؤلاء الشعراء إلى الواقعية الإنسانية – نجد فيه أن معاشقه – أو غرامياته كما نقول في لغتنا اليوم – وكأنها أحلام فتى مراهق يتسلى بتصورات جنسية لا يمكن أن تكون واقعية، ولكنها تعجب أمثاله من الخليين الذين كانوا يعيشون حياة مملة في صحراء مقلة في كل شيء، وأحسن أمثلة هذا الشعر قصيدته الجميلة.

أفاطـــم مهلا بعـض هـذا التـدلل * وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

ثم تجيء بعد ذلك حكاية المغامرة الغرامية بطيئة ثقيلة مستأنية لا تكاد تصدق، لأن الشيء البديع فيها، الذي نريد أن نقف على تفصيله، وهو كيف وصل الشاعر إلى فاطمة في سر من أهلها وهيي تتأهب للنوم، ثم خرج بها – سرقة من أهلها إلى مكان بعيد يخلو بها فيه؟!

فجئت وقد نضت لنـوم ثيابها * لدى الســـتر إلا لبسة المتـفضل

فقالـت: يمــين الله مالك حيــلة * وما إن أرى عنك الغوايــة تنـجلي

خرجت بها تمشي تجر وراءها * على أثرينـا ذيــــل مُــرطٍ مُرحَّـل

وتلك هي الحلقة التي كنا نريد أن نعرف كيف تمت، فتلك هي العقدة، فهذه امرأة تعيش في أخبية أهلها، وأهلها لا يشغلهم في هذه الدنيا إلا أمران: حماية أنفسهم من العدوان، وحراسة نسوانهم من الأغراب. وأخبيتهم محاطة بالكلاب، ثم إن عيون الناس لا تكاد تغفل حقاً، فكيف استطاع ذلك؟! ولكن الناس على أي حال كان يعجبهم هذا الكلام، مع أنهم يعرفون أنه تخيل، فكلهم يحلمون هذه الأحلام ويتمنون أن يقوموا بمثلها، والمهم أن أمرأ القيس بن حجر يحكى هذه القصة في شعر جميل سهل ينساب سهلاً مرسلاً.

وهذا كله قضى عليه الإسلام، لأنه أخرج العرب من الطفولة والمراهقة، وأعطى الحياة شكلاً جديداً ومعنى آخر، وإذا كان لابد أن يعيش الشعر العربي فلابد أن يدخل في تلك الحياة الجديدة الجادة، ويوظف نفسه في خدمتها حتى يكون جزءاً منها. وحسان بن ثابت عاش في الجاهلية ستين سنة كما يقولون، وكان شاعر المدينة، ولكنه لم يصل قط إلى مستوى امرئ القيس أو عمرو بن كلثوم أو زهير بن أبي سلمى، ولكنه رزق قدرة على صياغة الشعر في لفظ محكم ومستوى من اللغة رفيع، أما المعاني فهي دائماً عادية مما يتكرر في كثير - بل كثير جداً - من قصائد الشعراء الآخرين. فمن أمثلة شعره في الجاهلية قوله يمدح الأيهم بن جبلة الغساني:

أولاد جفنة عند قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المُفْضِلِ

يُسقون من ورد البريص عليهم * بَرَدَى يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

بض الوجوه كريمة أحسابهم * شم الأنوف من الطراز الأول

وعندما جاء الإسلام كان حسان قد أدرك الستين كما ذكرنا، وكانت شاعريته قد وصلت إلى أوجها، وبدأ في الانحدار دون أن يدري، والانحدار هنا هو التكرار والعجز عن الإتيان بجديد. كان الإسلام بارتفاع معانيه واتساع آفاقه وروعة المثل

الأعلى الذي رسمه، وقد أسلم حسان ولكن إسلامه لم يبرز في شعره. فشاعريته لم تصل به إلى إدراك نواحي التفرد التي تميز بها الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ولا الوصول إلى ناحية من نواحي إبداع الإسلام، ومهما قرأت في شعره فإنك لا ترى فيه إحساساً بالإسلام عميقاً أو شاملاً، ولم يكن الرسول بحاجة إلى حسان بن ثابت أو إلى شعره، ولكنه وجد الأعداء يقولون الشعر في مهاجمة الإسلام، وكان يعرف أن العرب يحبون الشعر، فلم ير بأساً في أن يدع حسان بن ثابت يقول الشعر في الدفاع عن الإسلام أو الرد على أعدائه.

وقد قيل إن حساناً كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام، وهذا كلام رواه صاحب الأغاني دون تحفظ، لأن حساناً – في نظرنا – لم يكن شاعر رسول الله في عصر النبوة، ولا كان شاعر اليمن كلها في الإسلام.

وهو وقد روينا مقالاً من شعره في الجاهلية نظم لا شعر على أي حال فإن آل جفنة وهم آل حسان لا يستحقون أحسن من هذا الكلام.

وكذلك ما يُحكي من أن الناس طلبوا من عليٍّ بن أبي طالب أن يهجو القوم الذين هجوا المسلمين فقال الرسول: إنه ليس هناك، أو ليس عنده ذلك، فانبرى حسان بن ثابت وندب نفسه للقيام بذلك الأمر، وقال: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء، وجعل نفسه من ذلك الحين شاعر الرسول والإسلام، وهذا حديث أقرب إلى الخرافة لأننا نقرأ في سياق الخبر أن رسول الله قال لحسان كيف تهجوهم وأنا منهم؟! قال إني أسلك منهم كما تُسل الشعرةُ من العجين، وهذا كلام مستبعد عندنا، لأن حساناً إذا هجا القرشيين كان مفهوماً أنه يعني كفار قريش، وهذا أمر لا يستدعي براعة، ثم تعال واقرأ معي شيئاً من شعر حسان بن ثابت في مدح الرسول والمسلمين:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم * قد بينوا سنة للناس تُتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته * تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم * أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

لا يرقع الناسُ ما أوهت أكفهم * عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

إن كان في الناس سباقون بعدهم * فكلُّ سبق لأدنى سبقهم تبعُ

أعفة ذكرت في الوحي عفتُهم * لا يطمعون ولا يزري بهم طمعُ

يسمون للحرب تبدو وهي كالحة * إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفرحون إذا نالوا عدوهم * وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

إلى أن يقول:

أكرم بقوم رسول الله قائدهم * إذا تفرقت الأهواء والشيعُ

وإنهم أفضل الأحياء كلهم * إن جد بالناس جد القول أو سمعوا

وهذا شعر بعيد جداً عن المستوى الذي يتطلبه مدح الرسول والمسلمين، وقد أحس الناس بضعف مستوى شعر حسان في الإسلام ولاموه في ذلك، وعلله بعض النقاد القدامى بتعليلات لا تعجبنا، فقد قال الأصمعي مثلاً: «الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضَعُفَ، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره[1] .

وهذا أيضاً كلام لا نستطيع قبوله، لأن حساناً فيما نرى لم يكن قط من فحول الشعراء في الجاهلية، وأين هو من امرئ القيس أو لبيد بن ربيعة أو زهير بن أبي سلمى وعمرو بن كلثوم؟ وحكاية أن الشعر نكد ولا يجود إلا في الشر حكاية غير صحيحة أو سليمة، فمن الذي يقول إن الشعر لا يجود إلا مع الكذب وفي دواعي الشر؟

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ صـ٣١١ تحقيق أحمد محمد شاكر.

وبصفة عامة نلاحظ أن الشاعرية العربية لم تصل قط إلى المستوى الذي يستحقه رسول الله ﷺ، وكبار شعراء العرب لم يقولوا في مدح الرسول أو في تفضيل أعماله شيئاً يبلغ المستوى المطلوب، ورجال مثل أبي نواس أو أبي تمام أو البحتري أو المتنبي لم يؤثر عنهم شعر في الرسول ﷺ أو الإسلام مع كثرة ما قالوا في الخمر والرذيلة حتى بردة البوصيري التي شرقت وغربت وزعم الناس أنها من عيون الشعر لم تكن لا من عيون الشعر ولا من آذانه، حقاً إن الرجل (توفي ٦٠٨هـ/١٢١٢م) قالها من أعماق قلبه في فترة عسرة من عمره، فقد كان قد أصابه شيد يشبه الشلل عجز معه عن الحركة، وفي محنته تلك نظم بردته التي عبر فيها عن عميق محبته للرسول، فشفاه الله بها وعاد إلى نشاطه، ولكن الرجل نفسه لم يكن بشاعر، وكلامه في البردة متكلف وثقيل.، ويتجلى هذا منذ البداية:

أمن تــذكر جيــران بــذي ســـلم * مزجـت دمعاً جـرى من مقلة بدم؟

أم هبت الريـح مـن تلقـاء كاظمـة * وأومض البرق في الظلماء من إضـم

فما لعينيـك إن قلت أكففا همـتا * وما لقلبك إن قلـت أسـتفق يهم؟

ولا بد أن ننتظر حتى يقول أحمد شوقي مدائحه في الرسول لكي نقرأ شعراً حقيقياً على مستوى الرسول والإسلام.

وكان حسان ممن وقعوا في أم المؤمنين عائشة في حديث الإفك، ويقال إن رسول الله جلده في ذلك ستين جلدة. ونال نفس العقاب مسطح بن أثاثة وربما حفنة بنت جحش، وقد غفرت أم المؤمنين عائشة لحسان ما آذاها به بلسانه، وقالت: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبي ﷺ أليس القائل:

فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء؟

فقيل لها: ألم يقل فيك؟ فقال: لم يقل شيئاً، ولكنه الذي قال:

حصـــان رزان ما تُزَنُّ بريبـــة * وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فـإن كـان ما قد قـيل عني قلته * فلا رفعت سـوطي إليّ أنامـلي

وقد عاش حسان مائة وعشرين سنة: ستين منها في الجاهلية وستين في الإسلام - وتوفي حوالي سنة أربعين للهجرة في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

* * *

ولكن الصحابي الذي كان شاعر الإسلام ورسوله حقاً - في نظرنا - هو عبد الله بن رواحة وهو من بني الحارث من الخزرج.

وقد رأيت مما سبق من فصول هذه الدراسات أن الأنصار من الصحابة يمتازون على غيرهم بصفة رئيسية، وهي أنهم منذ دخلوا الإسلام وهبوه حياتهم كلها، وعاشوا له ومنه وبه وأصبحت أمنيتهم الكبرى هي الاستشهاد في سبيله.

وليس في الدنيا مخلوق يجب الموت، لكن الأنصار عندما استمعوا للقرآن وسمعوا الرسول ورأوه يتصرف ويعمل أدركوا أنه لكي يعيش الإسلام ويعز فلابد أن يكون المسلمون مستعدين للموت في سبيله، لأن الله عندما أرسل محمداً ﷺ بالإسلام أراد أن يظل هذا الدين ينتشر ويتوسع حتى يصبح دين الناس كافة، وأدركوا كذلك أن الناس بطبعهم متمسكون بما ولدوا عليه، وأن الدخول في الإسلام يحتاج إلى جهد عقلي ونفسي، وهناك ناس كثيرون لابد أن تهزهم هزاً عنيفاً حتى يفيقوا من كسل العقول، ويفكروا فيما يعرض عليهم من الإسلام، وفي هذه الحالة ستتبين لهم فضائله ويدخلونه، ومن هنا كانت ضرورة الجهاد وبيع النفس من الله، فهي في حقيقتها حياة، لأنك تتخلى عن العاجلة لتكسب الآجلة، وهي الباقية، ومن ثم فأنت تحيا عندما تستشهد في سبيل الإسلام، وتلك كانت عقيدة الأنصار، ومن هذه الناحية كانوا أذكى المسلمين.

هنا تتجلى لنا عبقرية عبد الله بن رواحة الشاعر، فإنه منذ أسلم نذر حياته ونسى شاعريته، مع أنها من أصفى الملكات الشاعرية التي عرفناها، وكان يحب

رسول الله حباً شاملاً، ومدحه إياه لم يكن مدحاً تقليدياً، وإنما هو كان تعبيراً عن حب، واقرأ الأبيات التالية لتفهم عني ما أريد قوله:

إني تفرست فيك الخيـر أعرفه * والله يعـــلم أن ما خانني البصرُ

أنت النبي، ومن يحرم شفاعته * يوم الحســاب فقـد أزرى به القدر

فثبت الله ما آتــاك من حَسَـنٍ * تثبيت موسى، ونصراً كالذي نصروا

فقال رسول الله ﷺ : وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة. قال: هشام بن عروة (ابن الزبير) فثبته الله أحسن الثبات، فتحت له أبواب الجنة، فدخلها شهيداً(١) .

وكان عبد الله بن رواحة يجتهد في أن يكون مسلماً على أعلى مستوى من الإيمان، وله في ذلك قصة طريفة رواها ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، قال: «وقصته مع زوجته في حين وقع على أمَته مشهورة، رويناها من وجوه صحاح، وذلك أنه مشى ليلاً إلى أمةٍ له فنالها، وفطنت له امرأته فلامته، فجحدها «أي أنكر ما قالته»، وكانت قد رأت جماعهُ لها، فقالت له: إن كنت صادقاً فاقرأ القرآن، فالجنب لا يقرأ القرآن فقال:

شـــهدت بأن وعد الله حق * وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء حق * وفوق العرش رب العالمينا

وتحمـــله ملائكـة غـلاظٌ * ملائكـة الإله مســـومينا

فقالت امرأته: صدق الله وكذبت عيني! وكانت لا تحفظ القرآن ولا تقرؤه(٢) .

فانظر إلى هذا الرجل الطريف الذي أحس بالخجل عندما وجد أن امرأته قد ساءها أن يجتمع بأمته، وحاول الإنكار، فلما تحدته امرأته وطلبت إليه أن يقرأ القرآن لأنه كان جنباً والجنب لا تصح قراءته للقرآن، فاستحى وتهرب من الموقف

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٢٢٥.
(٢) الاستيعاب ٣ / ٩٠٠ - ٩٠١.

بهذا الشعر البسيط الجميل الذي يدل على إيمان صادق، واضطرت زوجته إلى أن ترفع عنه الحرج، فكذبت عينيها وقالت إنه صادق فيما زعم من أنه لم يقرب جاريته.

وكان عبد الله بن رواحة يشتاق إلى الشهادة منذ دخل الإسلام، وقد كان الرجل عقبياً نقيباً، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله وقد أقامه رسول الله أميراً على الجيش الذي خرج لسرية مؤتة في جنوبي فلسطين ثالثاً بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، قال ابن إسحاق راوياً عن عروة بن الزبير: «فتجهز الناس وتهيئوا للخروج. فودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، وعندما ودَّعوا عبد الله بن رواحة بكى، فقال الناس: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة إليها. ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا) [مريم: ٧١] فكيف لي بالصدر بعد الورود (أي كيف أعود سالماً بعد أن أتيحت لي فرصة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله حتى لا يورد على النار) فقال الناس: فصحبكم الله وردكم إلينا صالحين، ودفع عنكم، فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة * وضربة ذات قرع يقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة * بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي * يا أرشد الله من غاز وقد رشدا[١]

وقد استشهد عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة على ما هو معروف، وكانت مؤتة في جمادي سنة ثمان للهجرة.

وثالث شعراء الرسول ﷺ هو كعب بن مالك من بني ساعدة، وهو لا يقل شاعرية عن عبد الله بن رواحة، وكان عقبياً، ولكنه لم يشهد بدراً ولا تبوك وكان

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٢٢٦ / ٢٢٧.

أحد المتخلفين عنها بسبب الحر الشديد، وقد تاب الله عليه، ومن دلائل عبقريته الشعرية أنه قال بعد أن حاصر المسلمون ثقيفاً وارتدوا عنها وأصبح دخولها في الإسلام وشيكاً.

قضينا من تهامة كل وتر * وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نُخيرها ولو نطقت لقالت * قواطعهن دوساً أو ثقيفا؟

فخافت قبيلة دوس وأسرعت بدخول الإسلام ..

* * *

وإلى هنا أقف بالحديث عن الصحابة من الأنصار، ولو أردنا لاستمر الحديث حلقات بعد حلقات، فإن حديث الصحابة من الأنصار عطر جميّل، ولكن فيما قلناه كفاية الآن، والذي أردناه هو العبرة والمثال، وفيما قلناه كفاية فيما نحسب، وطريق البحث متسع لمن أراد ..

رقم الإيداع ٢٨٠٥ / ٨٩

الترقيم الدولي ٩٧٧ - ١٤٣١ - ٥٦ - ٠

المحتوى

هذا الكتاب

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة .

لا يعرف قدر الصحابة من الأنصار إلا من يدرس السيرة النبوية الشريفة ، لأن المؤرخين ركزوا على المهاجرين وجعلوا لهم الفضل كله ، وقللوا من أهمية الدور الذى قام به الأنصار فى خدمة الإسلام والرسول صلوات الله عليه وسلامه .

وكان لابد لاستكمال معرفتنا بالسيرة الشريفة أن ندرس الصحابة من الأنصار ودورهم الجليل فى خدمة الإسلام .

وفى صفحات هذا الكتاب تعريف موجز بالأنصار ودورهم ، وهذا التعريف فى الحقيقة مقدمة لتاريخ الأنصار .

والحمد لله والشكر له سبحانه ، وهو من وراء القصد والنية .

ويسر **دار الصحوة** أن تقدم إلى القارئ الكريم هذا الكتاب .

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com